المجلة التاريخية المغربية



عدد 3 جانفي/يناير 1975

تونس

المجلة التاريخية المغربية

مديـــرهــــا

عبد الجليل التميمي

الاشتراكات ومراسلات التحرير بالعنوان التالى :

عبد الجليل التميمى 9 نهج الحكيم الحبيب تامر ، **خير الدين** .
الجمهوريـة التونسيـة .

الاشتـراك (عـددان في السنـة)

المغرب العربى .... 3 د. ت.
العالم العربى ، وفرنسا .... 45 فرنكا فرنسيا أو 9 دولارات .
غير هاته البلدان .... 50 فرنكا فرنسيا أو 10 دولارات .

تسدد قيمـة الاشتراك عن طريق حوالـة بريدية فى الحساب الجـارى :
CCP 1057-36 ـ تونس أو بواسطة حوالة بنكية .

المجلة التاريخية المغربية

(للعهد الحديث والمعاصر)



عدد 3 جانفي/يناير 1975

تونس

● على الغــلاف ، احد وجهى عملة ذهبيــة كتب عليها « سلطان البرين وخاقــان البحريــن ، السلطان آبن السلطان » وحيث نجد ذلك فى كل العملات الذهبية والفضية التى ضربت فى كامل أرجاء الامبراطورية العثمانية .

راجع بخصوص هذه الصورة : **دائــرة المعارف الاسلامية التركية** ، ج 10 ، ص 631 ، الشكــل رقم 42 ، استنابول ، 1966 .

● يتحمل كل باحث مسؤولية آرائــه الشخصية .

مطبعــة الاتحاد العام التونسى للشغــل

فهرس الموضوعات

1 ـ محتوى القسم العربي

البحوث :

2 ـ محتوى القسم الفرنسي والانجليزي

البحوث :

دور المبشرين في نشر المسيحية

بتونس 1830 - 1881

عبد الجليل التميمي

تساعد دراسة موضوع نشر المسيحية فى تونس (*) على فهم عدد من القضايا التاريخية والقاء اضواء جذرية عميقة على عدد آخر ، خيل الينا انها عوارض لا تسترعى انتباهنا ولا تستحق الوقوف ، وهى فى الواقع ذات اثر بعيد المدى على مجريات الاحداث على الصعيد الداخلى والمغربى ، وحركة التبشير من الحركات التى يجب ان يتوقف عندها الباحث والمؤرخ على الخصوص لا لفهم وتفسير الاحداث والعقلية السائدة والسلوك والنتائج فحسب ، بل يجب ايضا فهم الايديولوجية الدينية المسيحية التى كانت وراء تطلعات الكنيسة بافريقيا الشمالية خلال العصور الحديثة وخاصة بعد احتلال الجزائر الذى يمثل تحولا كاملا وعميقا لسياسة الكنيسة تجاه الدول المغربية الثلاث ، فضلا عن رجال السياسة الفرنسيين الذين خططوا لهذا الاحتلال ، حيث كانوا هم الآخرون يأملون القضاء على الطابع الاسلامى لهذه الشعوب خدمة للمسيحية وللانسانية (1) .

وقد صفقت لهذا الحدث التاريخى كل الدول الاوروبية وحكوماتها وكذلك رجال الكنيسة الذين اعتبروا ذلك فتحا ونصرا من عند الله . ألم يصرح الكردينال لافيجرى بان الجزائر اصبحت لنا او بتعبير اصح اصبحت ملكا للعالم المسيحى (2) وبان فرنسا اصبحت الآن حارس المسيحية الاول بافريقيا (3) وان عليها ليس فقط استغلال اكبر الثروات ، بل غرس الحقيقة، لا ان تقيم السلطة على العبودية والقضاء على المنهزمين ، بل ان تعمل على انشاء شعب حر ومسيحى ، ذلك انه من المغرب الاقصى ومن تونس حتى مصر تتناثر

---

* نص المحاضرة التى ألقيت فى المؤتمر العالمى الاول للاخاء الاسلامى - المسيحى المنعقد بقرطبة ما بين 10 و 15 سبتمبر 1974. وعلى الرغم من ردود الفعل الحادة التى أثارتها هذه المحاضرة من طرف الحاضرين بين مهاجم أشد الهجوم وممتدح غاية المدح، أنشر اليوم نصها وفاء وأمانة للحقيقة التاريخية مع التأكيد أننى سأبقى ملتزما بكل ما جاء فى هذا البحث التاريخى .

استندنا فى هذا البحث الى عدد من الوثائق التاريخية المحفوظة بأرشيف الدولة التونسية وقد ذكرنا أرقام ملفاتها تباعا فى حواشى الدراسة . كما رغبنا فى الاطلاع على أرشيف الكردينال لافيجرى وغيره من الوثائق المتعلقة بالموضوع ، الا أننا لم نتمكن من ذلك لعدة أسباب .

(1) راجع دراستنا ، « **التفكير التبشيرى والدينى لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين فى الجزائر فى القرن التاسع عشر** » ، ص 12 - 24 ، المنشورة بـ : **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 1 ، تونس، 1974 .

(2) Mgr. Grussenmeyer, *Vingt cinq années d'épiscopat en France et en Afrique. Documents biographiques sur son éminence le Cardinal Lavigerie*, t. II, p. 407, Alger, 1881.

(3) Fournel, Marc, *La Tunisie, le christianisme et l'Islam* dans l'Afrique septentrionale, p. 172, Paris, 1886.

بقايا امة مسيحية امتزجت بالهجومات البربرية (4) ؟ وكذلك عندما نجحت الجيوش الفرنسية لاحتلال تونس واعلان حمايتها عليها ، صرح الكردينال لافيجري بان ذلك قد اكسب الكنيسة عدم اعلان حرب دينية (4 مكرر) .

والواقع ان التخلف بشتى مظاهره الذي ران على شعوب العالم الاسلامي منذ فجر العصر الحديث وبالاخص على المجتمع المغربي ، ثم الوضعية الاقتصادية القاتلة التي اصابت المجتمع ، فضلا عن نوعية اكثر الحكام الذين اداروا شؤون هاته البلاد ، يفسر طبيعة هذا الهجوم السياسي والعقائدي من طرف الغرب المسيحي الذي كان يعيش ثورة فكرية وصناعية واجتماعية كانت ابعادها عميقة جدا . ومن الطبيعي ان يكون تقييم المشاكل خاضعا لهذه المبادىء التي هيمنت خلال القرن التاسع عشر كله على تفكير المسؤولين ورجال الدين الغربيين تجاه المغرب العربي .

وقد تعددت نداءات رجال الدين وكثرت تآليفهم حول حتمية ارجاع هذا الشعب الى حضيرة الدين المسيحي باعتباره دين اغلبية اجدادهم ، و « حيث ان الاسلام انتزع منهم ذلك باقسى وسائل العنف . على ان الدين المسيحي قادر اليوم على ضمه الينا وصيرورته معنا شعبا واحدا » (5) ، وعليه اتفق المبشرون والساسة على ان الاسلام في افريقيا يعتبر عدوا لفرنسا وللحضارة والكنيسة ولا مهادنة معه (6) . وان تنصير الشعوب الاسلامية يدخل في اطار مصالح السياسة الاوروبية ، وكذلك تطلعات الكنيسة والفكر المسيحي عموما (7) .

ولكن ما هي الطريقة المثلى التي وجب اتباعها لدى المواطنين المسلمين لجلبهم الى الدين المسيحي والحضارة المسيحية الاوروبية ؟ هل يتم ذلك بدعوتهم الى اعتناق الدين المسيحي وتزيينه لهم وافهامهم اياه مع ثلب الدين الاسلامي وانه وراء تخلفهم وانحطاطهم ؟ ام وجب التفكير في وسائل اخرى اكثر نجاعة وفاعلية واقل تعرضا للسلطة السياسية من جهة وللهيجان العاطفي من جهة اخرى ؟ .

انتبه عدد من المبشرين ورجال السياسة الى ان القيام بعملية تبشيرية مكشوفة لدى المواطنين المسلمين يعد عملا محفوفا بالمخاطر ، وقد كتب ليون روش يقول : « لم اعرف خلال اقامتي الطويلة بعدد من البلدان الافريقية الا مسلما واحدا اعتنق باخلاص المذهب الكاثوليكي (8) وان هاته العملية خطيرة ،

---

(4) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. 2, p. 415.

(4 مكرر) Narcisse Faucon, *La Tunisie avant et depuis l'occupation française, histoire et colonisation,* la préface, Paris, 1893, cité in, Pierre Soumille, *Les Européens de Tunisie et les questions religieuses de 1893 à 1914 : étude d'une opinion publique,* Thèse de 3e cycle dactilographiée, Aix-en-Provence, 1973.

(5) *Idem,* t. I, p. 153.

(6) Klein, Abbé Félix, *Le Cardinal Lavigerie et ses œuvres d'Afrique,* nouvelle édition, p. 91, Tours, 1897.

(7) Bourgade, Abbé François, *Association de Saint-Louis ou croisade pacifique ayant pour but de répandre la civilisation chrétienne parmi les musulmans*, pp. 1-2, Paris, s.d.

(8) راجع بخصوص هذا الموضوع : 173، Fournel, *op.cit.*, وحيث يؤكد : « اننا لم نعمل على اعتناق مسلم واحد للدين المسيحي على طريقتنا منذ سنة 1830 » .

راجع أيضا (Bourgade) حيث ذكر المثل الشائع للقديس سان بولص (Saint Paul) من ان الدين والعقيدة ماتاهما التعلم

ذلك انه بمحاولة دعوة المسلمين الى اعتناق الدين المسيحى سنجازف بانتزاعهم من عدم اهتمامهم بالدين (ويقصد به الدين الاسلامى) حيث يعيش اكثرهم وحيث عمل عبد القادر على محاربة ذلك ، غير اننا نستطيع ان نهيىء لــــدى العرب وبالاخص القبائل ، عصـــر تمسيحهم باقامـــة عـــدد مـــن المبشريـــن ضمنهم ، تكون مهمتهم الوحيدة تعريفهم بالاخلاق المسيحية وتمريض مرضاهم وتعليمهم لغتنا وتلقينهم مبادىء المعرفة العامة » (9) .

وقد كتب احد مؤرخى التبشير الفرنسيين معبرا عن هذا الاتجاه بصورة أكثر دقة من ان اهم المشاريع المسيحية تتمثل فى الاحسان والتعليم وان على فرنسا القيام بذلك الواجب بله حمايته باعتبار ان ذلك يساهم فى نشر لغتنا وحضارتنا وتاثيرنا فى كل مكان وان « الصليبية اللينة والسلمية لا تبقى وراءها اراقة الدم ويستوجب الاخذ بالثار والحقد والكراهية المتبادلة بين الغالبين والمغلوبين ... ان هاته العملية تهيىء اخضاع الشعب والى حد كبير ادماج الشعوب وهى وسيلة افضل من قوة السيف القاطع ، وسوف تحصل هاته الصليبية مع الزمن ، على اضمن نجاح وابقاه ... » (10) .

ولانجاح هاته الصليبية اللينة والسلمية كما عبر عنها، وجب على المبشرين ان يعرفوا تاريخ ولغة وعادات واخلاق الشعب الذى يعيشون بينه حتى يضمنوا عطفه وكسب مشاعره ، وهذا يتوقف عـــلى شرطيـــن اساسيين : معرفـــة آراء الطرف المقابل جيدا ثم مزجها بطابعه الخاص (11) : وقد كتب الاب بورغاد وهو الذى لعب دورا هاما وخطيرا لتنشيط حركة التبشير بتونس : « امدحوا كبراءهم (ويقصد به التونسيين المسلمين) ، ارفعوا معنوياتهم ، تلك هى وسيلة لاضفاء الذكاء على الناس وجعلهم اكثر استعدادا وقبولا (لآراءالآخرين)، تحدثوا للعرب عن تاريخهـــم واعمالهم العلمية ، اعطوهم فكرة عمـــن كانـــوا فى الماضى ، ثم ان احترامك لثرواتهم هى وسيلة لجعلهم اكثر استعدادا لتقييم ثرواتنا » (12) ثم ألم يقر الاسقف باذى (Mgr. Pavy) ثانى اساقفة الجزائر ، تعليم اللغـــة العربية للجزائريين فى حين كانت السلطات الفرنسية قد اغلقت المدارس والكتاتيب وضيقت على العربية حتى خنقتها تماما وقضت عليها (13)»

وعليه اقر المبشرون ان تعليم الاطفال مسلمين كانوا او مسيحيين او يهودا ، واقامة المستشفيات والملاجىء ، واسعاف المرضى والعجز على اختلاف جنسياتهم ، وتوفير الخدمات الانسانية ، هو انجع الوسائل لكسب القلوب واخضاعها وتهيئة ظروف اعتناق الدين المسيحى فى المستقبل وخاصة مـــن طرف المسلمين (14) . وقد الح الكردينال لافيجرى على هذا الاتجاه بعد فشله الذريع فى انشاء قرى الاطفال العرب ــ المسيحيين بالجزائر وايمانه « بان الاحسان واللطف والاخلاص والعدالة المنصفة ثم الحمية المتبصرة واليقظة ،

---

(9) Léon Roches, *Trente deux ans à travers l'Islam*, t. II, pp. 306-307, Paris, 1887.

(10) Victor Guerrin, *La France catholique en Tunisie, à Malte et en Tripolitaine*, pp. 11-12, Tours, 1890.

(11) Bourgade, *op.cit.*, p. 11.

(12) *Idem*, p. 12.

(13) Idem., p. 13.

(14) Klein, *op.cit.*, p. 137.

وهى الخصال التى فرضتها علينا العقيدة المسيحية ، هى القادرة وحدها على انجاز الاعمال التى فرضت بادىء الامر عن طريق السيف » (15) .

ما هى اوجه تطبيق هاته السياسة التبشيرية بتونس ومدى نجاحها فى ذلك ؟ .

نشط الساسة الفرنسيون ورجال الدين للاستفادة من الانتصار العسكرى الفرنسى فى الجزائر وعملوا منذ اللحظات الاولى على مطالبة باى تونس بالتسليم مبدئيا بحق اقامة كنيسة باسم سان لوى بقرطاج . وقد عرفت حركة نشر المسيحية بتونس فى عهد حكم احمد باشا باى رعاية كبيرة من طرف الدولة التونسية وكذلك من طرف جوزاف رافو (Joseph Raffo) وزير الخارجية التونسية آنذاك ومن مترجم الباى الرسمى بوقو (Bogo) (16) وكذلك الياس مصالى فى عهد محمد الصادق باشا (17) .

والواقع ان دور رافو ، هذا المسيحى المتحمس لنشر المسيحية وحماية المبشرين لم يتعرض اليه احد بالبحث ، وفى اعتقادنا انه دور هام جدا لما اتاحه للبعثات التبشيرية من توفير الكنائس لهم (18) وبناء المستشفيات والمدارس ومدهم بمختلف المساعدات وجلب لهم عطف احمد باشا باى الى درجة ان هذا الاخير وعد ببناء كنيسة بباردو من ماله الخاص كما جاء فى احد الوثائق التاريخية المحفوظة بارشيف الدولة التونسية التاريخى (19) . وقد ساهم الكونت رافو فى توفير حرية المبشرين وعدم التعرض لنشاطهم وتحقيق مطالبهم كما عمل على ربط الصلة بين الباى وبابوية روما حيث قام بزيارتين رسميتين باسم تونس الى رومة ، ولا ادل على ذلك من هاته المراسلة الرسمية التى تمت بين احمد باشا وبيوس التاسع حيث تكشف مدى الامتنان الذى

---

(15) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. I, p. 116.

(16) طلب دى روساليا (De Rosalia) اسقف تونس من المترجم بوقو ان يتدخل لدى الباى ليحول أحد الاماكن المحبسة بالمهدية الى اقامة للمبشر ومكان للصلاة ، راجع هاته الوثيقة بـ : **ارشيف الدولة التونسية (أ. د. ت) ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 9** ، رسالة بتاريخ 20 اوت 1854 ، راجع ايضا الوثيقة رقم 4 ، من نفس الملف ، وهى رسالة من قنصل فرنسا بتونس الى بوقو بتاريخ 20 اكتوبر 1854 ، طالبا منه ان يتدخل لدى الباى ليمنحه أرضا بحلق الوادى لبناء كنيسة .

(17) رسالة من ليون روش ، قنصل فرنسا بتونس الى الياس مصالى بتاريخ 11 نوفمبر 1861، طالبا منه ان يتدخل لدى الوزير الاكبر لتوفير مكان لاقامة كنيسة للمذهب الكاثوليكى ببنزرت راجع : **أ. د. ت ، ملف 761 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 24** .

(18) لقد ساهم هو شخصيا بمقدار 16.000 ريال لبناء كنيسة للاب لوى دوتاجيا (Père Louis de Taggia) راجع :
Mg. A Pons, *La nouvelle église d'Afrique ou le catholisme en Algérie, en Tunisie et au Maroc depuis 1830*, p. 208, Tunis, 1930.

(19) **أ. د. ت. ملف 760 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 4** ، وهى رسالة باللغة الايطالية من جوزاف رافو الى احد رجال الدين بتونس ، بتاريخ 20 ماى 1846 ، نقتطف من ترجمتها العربية وهى تحمل الرقم 5 ، الفقرات التالية : « أتشرف باعلام جنابكم بالالفاظ التى جاوبنى بها جنابه بحضرة جميع دايرته وهى اننى أضع دايما جميع ما ينشأ منه رضا خاطر الاسقف وقل له أن يكون مطمئن الخاطر من قبل الدار التى اعطيتها اياه التى كانت قنصلات صبانيا فى السابق لاننى اشتريتها من أصحابها 17000 ريال وأمس التاريخ بمحضرى اذن حاكم حلق الوادى بان يعطى لجنابكم ما يكفى من الارض لاجل بناء كنيسة اخرى . وأما فى خصوص كنيسة باردو فان جنابه اذننى بانتخاب محل لايق (كذا) بذلك ووعد جنابه ببنايها (كذا) من ماله ، فمن جهتى ابذل غاية جهدى فى اسعاف ما يظهر لجنابكم من الراى العائدة منفعته الى كنيستنا ولمرضاة خاطر جناب سيدنا البابا » (كذا).

يكنه البابا لرافو واصفا اياه بـ « ولدنا المحبوب » (20) اما أحمد باشا فيضفى عليه الالقاب التالية : « صاحب اسرارنا الموقر المحترم الوجيه الثقة المقرب الاميرالاى الكمندتور ابننا جوزاف رافو » (21) .

اما قنصل فرنسا بتونس فقد كتب الى رافو يحثه على التدخل لدى الباى : « اننى اطلب من سيادتكم حيث لا يخفى على مدى الغيرة التى تتحلون بها لكل ما يتعلق بالمصالح الكاثوليكية ، ان تتفضلوا بتذكير الباى ان يصدر اوامره الكافية لاعادة ترميم الكنيسة (بنزرت) فورا » (22) ولا تخفى اهمية شهادة احد المبشرين حول نشاط رافو الذى يعتبره « من اشد المتمسكين لمبادئه وللحكومة ، غير ان تمسكه بالدين الكاثوليكى اكثر حيث يقوم ، بصورة لائقة بكل الواجبات نحوه ، وهو يعتبر من اشد المخلصين الاصدقاء ومن اكثرهم حماية وعطفا على البعثات والمبشرين » (23) .

وقد اهتم الكونت بميدان نشر التعليم حيث اوحى لاخوات القديس يوسف بفتح مدرسة للبنات المواطنات بالمرسى سنة 1843 (24) ، كما تدخل لدى الباى لتقديم مساعدة مالية (25) لمعهد سان لوى الجديد والذى فتحه سنة 1845 الاب بورغاد بكنيسة سان لوى بقرطاج او توسيع هاته الاخيرة (26) لتحتضن اول مستشفى سنة 1843 وليتم ادارتهما من طرف الاب بورغاد .

الا انه قبل ذلك وصلت السيدة فيلار (Mme Vialar) من الجزائر لتعمل لاول مرة على تقديم المساعدة ونشر العلم وبالفعل فقد باشرت حين

---

(20) **أ. د. ت. ملف رقم 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 14** ، رسالة من البابا بيوس التاسع الى احمد باشا باى بتاريخ 17 مارس 1851 ومما جاء فى هاته الرسالة : « لقد سرنا جدا قبول ولدنا المحبوب البارون جوزفى رافو وزيركم فى الامور البرانية الذى أرسلته الينا ليهنينا باسمكم على رجوعنا الى هذه البلدة بعد الوقايع المغمة التى حصلت واصحب لنا بيده جوابا تكلم بحنينه التى شرحتم لنا بهم (كذا) بكل محبة جميع مرامكم .... ونحن نعترف اننا مربوطون نحوكم بتلك المحبة التى أظهرتموها لنا بجوابكم ونحن متحققون أن عند الاحتياج المكرم أخينا الموقر الاسقف دو روزاليا الوكيل الرسولى بتونس والقسيس المبعوثين المسيحية (كذا) وجميع الكاثولكية القاطنين بتلك الاقطار يحصلو على مساعدتكم ومحاماتكم ... » .

راجع نص هاته الرسالة كاملا باللغة اللاتينية ثم ترجمته الى الفرنسية فى القسم الفرنسى لهذا العدد ، ص 95 – 99 .

(21) **أ. د. ت. ملف 756 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 3** ، أمر من أحمد باشا بتاريخ 28 محرم 1262/26 جانفى 1846 ، قارن ايضا : ابن ابى الضياف ، احمد ، **الباب السادس من اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان** ، « **دولة أحمد باشا** » ، تحقيق احمد عبد السلام ، ص 118 ، تونس ، 1971 .

(22) **أ. د. ت. ملف رقم 761 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 21** ، رسالة قنصل فرنسا بتونس الى رافو بتاريخ 11 جويلية 1853 .

(23) Père Anselme des Arcs, *Mémoires de la Mission des Capucins*, p. 45, Rome, 1875, cité in, Pons, *op.cit.*, p. 211.

(24) Docteur Arnoulet, « *La pénétration intellectuelle en Tunisie avant le protectorat*, p. 152, in, Revue Africaine, 1° et 2° trim. 1954.

(25) *Idem*, p. 231.

(26) استغل الاب بورغاد تساهل وعطف الباى وحمايته للمبشرين لتوسيع كنيسة سان لوى ، غير أن مجال ذلك كان كبيرا وتم ذلك بغير اذن الباى حيث أظهر هذا الاخير تخوفا من الأقاويل التى راجت لدى عموم الناس وقد بعث الباى الى قنصل فرنسا يستفسره عن ذلك : « فانه كثرت لدى الأقاويل وخصوصا أرجافات العامة فى هذا البناء الذى فى الصان لويز (كذا) ، فخاطبتكم على وجه المحبة بهذا المكتوب لتعرفنى بصورة ما هناك من البناء ومقداره وكيفيته لنكون على بصيرة من هذا الامر الذى لا يخفى عليكم ما يلحقنى فيه من التعب ،،، » راجع هاته الوثيقة : **أ. د. ت. ملف 757 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 3** ، رسالة بتاريخ 18 رمضان 1260/1 نوفمبر 1844 .

وصولها تبث الحضارة المسيحية وتعلم اطفال مختلف الطبقات واقامت بسوسة بيتا لهذا الغرض سنة 1843 ثم بصفاقس وحلق الوادى (27) .

على ان الاب بورغاد يعتبر من المع وانشط المبشرين الذين عرفتهم تونس فى منتصف القرن الماضى ، وقد وصل الى تونس سنة 1840 مرافقا « لاخوات الصفاء الساعيات فى مصالح الفقراء والمرضى ابتغاء مرضاة الله » . (28) . على ان سلوك بورغاد ونشاطه وتآليفه العديدة وانجازاته تكشف بكل وضوح عن اخلاصه لمبادىء وظيفته التبشيرية . وقد ادرك عميق الادراك ان انشاء المستشفيات وتوفير المعاهد هما انجح الوسائل لبعث الكنيسة الافريقية على اسس ثابتة فضلا عن امتهان معنويات المسلمين وتشكيكهم فى دينهم وتاريخهم وحضارتهم وقيمهم الاخلاقية كما تحاول اقناعهم بخطئهم فى اتباع الدين الاسلامى وبالتالى وجب تشجيعهم على اعتناق الدين المسيحى عن اقتناع وروية . وقد نشر بورغاد ثلاثة كتب هى : **امسيات كرطاج** و **مفتاح القرآن والمرور من القرآن الى الانجيل** ، والتى ترجمت بامانة عن فلسفة بورغاد التبشيرية بتونس (29) ، ولتتويج هذا النشاط قام بورغاد بانشاء سنة 1847 « جمعية سان لوى او الصليبية السلمية التى هدفها نشر الحضارة المسيحية لدى المسلمين » وكان مقرها باريس وقد استقطبت هاته الجمعية كل نشاطه كما أنشأ بالاضافة الى ذلك معهدا لتدريس اللغة العربية للاطفال العرب ، وقد وضع بنفسه برنامجه التعليمى ، وكان يصرح للمشرفة : « ان ذلك حتمى لانتصار الدين وشرف فرنسا » (30) . وقد لقى هذا المعهد لدى المواطنين نجاحا ملموسا ويكفى دلالة على مدى هذا النجاح ونوعية المثقفين الذين تخرجوا من مثل هذا المعهد ان نذكر سليمان الحرايرى .

وفى سنة 1855 جلب الاسقف سوتر (Mgr. Sutter) الى تونس « اخوان المذهب الكاثوليكى » الذين فتحوا معهدا لتدريس الفرنسية والايطالية سرعان ما ضم اليه كل الاطفال ، وهذا ما اجبر الاب بورغاد ان يغلق معهده وان يرحل الى باريس (31) ، وقد عدد الاسقف سوتر مساعيه فى هذا الميدان ونجح مع الزمن فى انشاء ثلاثة معاهد للاطفال وخمسة للبنات (32) .

ومنح الاب بورغاد من جهة اخرى ميدان التطبيب اهمية بالغة حيث عرف الجناح الذى خصصه من كنيسة سان لوى لاستقبال المرضى ومنحهم المساعدات الطبية مجانا للمسلمين وغير المسلمين ، رواجا كبيرا ، وقد طلب بورغاد من الاخوات اللاتى يشرفن على اقتبال المرضى ، وكن يخشين من عدم توفر الاسرة الكافية قائلا لهن : « اقبلن اقبلن دوما المرضى دون ان تحصوهن، فان العناية الالهية ستمنحنا مساعدتها » (33) .

ولقد حرصت اخوات القديس يوسف البالغ عددهن اثنتى عشرة على توزيع نشاطهن باهم مدن الولاية فى ميدان التعليم والتطبيب حيث كن

---

(27) V. Guerrin, *op.cit.*, p. 64.

(28) عبد المجيد الشرفى، « الحركة التبشيرية فى تونس فى القرن التاسع عشر: بورغاد ولافيجرى » ص 134 ، المنشورة بـ : **حوليات الجامعة التونسيه** ، العدد الثامن ، تونس ، 1971 .

(29) **المصدر نفسه** ، ص 131 ـ 142 ، يقدم اطارا تاريخيا واعيا لمحتويات هاته الكتب الثلاثة.

(30) Mgr. Pons, *op.cit.*, p. 222.

(31) Louis Machuel, *L'Enseignement public en Tunisie*, p. 6, Tunis, 1900.

(32) Grussenmer, *op.cit.*, t. II, p. 122.

(33) Mgr. Pons, *op.cit.*, p. 230.

يقدمن الهبات والمساعدات ويداوين المرضى على اختلاف اديانهن وان هؤلاء الاخوات « يترددن كل يوم على بيوت المرضى مسلمين كانوا ام مسيحيين ام يهودا وان دخولهن لهاته البيوت كان يتم دوما بسهولة وبسرور » (34) .

وقد لمح الاب بورغاد فى المقدمة التى وضعها لكتابه عن اللغة الفينيقية بتونس والذى اهداه الى احمد باشا انه عمل باعانة من الله على تخفيف آلام المرضى وتثقيف الطفولة وانه فتح عددا من المعاهد ، هى ولا شك متواضعة، غير انها تنبىء بمستقبل عظيم خصوصا وهى تحت اشراف احمد باشا الابوى (35) ، كما جاء ذلك فى المقدمة (36) .

لقد منح احمد باشا كل التسهيلات لرجال الكنيسة ، فوسع لهم من كنائسهم ومنحهم اراضى كثيرة فى طول البلاد وعرضها لبناء كنائس ومعاهد جديدة والغى الكراء على بعضها (37) ، كما وهب عدة اعانات (38) وهذا ما يفسر نمو واطراد حركة نشر المسيحية بتونس فى عهده (39) وحيث كان يعتبر ذلك واجبا يقوم به « اعانة لسكان ايالتنا وحرصنا على زيادة راحتهم وابحنا لقيمي الكنيسة التصرف فيما ذكر ... » (40) كما جاء فى احدى رسائله . وقد اضفى البابا على رعايته للمسيحيين والمبشرين اجمل الالقاب والاوصاف ، اعترافا بجميله ، اما ملك سردانيا فقد اهداه نيشانا يقرب من شكل الصليب (41) .

وقد تأثر باذى (Mg. Pavy) اسقف الجزائر عندما بلغه نجاح نشاط بورغاد الذى تمكن من تنصير احد المواطنين المسلمين، وقد كتب رسالة

(34) **أ. د. ت. ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة 7** ، رسالة من قنصل فرنسا بتونس الى احمد باشا بتاريخ 19 اكتوبر 1854 .

(35) من مظاهر العطف الذى يفتخر به الاب بورغاد ، أن أحمد باشا نصب خيمة قرب كنيسة سان لوى (ولا ندرى ما هو الغرض من ذلك ، هل لطلب الهواء أم للتظاهر بالعطف والحماية لرجال الدين المسيحيين ؟) وعندما أحس الأب بورغاد ، ليكون وفيا للروح الشرقية التى خبرها جيدا ان يهدى شيئا لجاره الباى ، ويضيف بورغاد أنه فعلا أهداه البقرتين الوحيدتين اللتين يملكهما كعلامة اكرام للباى ، راجع هاته الوثيقة : **أ. د. ت. ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 11** ، رسالة بتاريخ 26 جانفى 1850 .

(36) Abbé François Bourgade, *Toison d'or de la langue phénicienne,* 2e édition, p. 1, Paris, 1856.

(37) احمد ابن ابى الضياف ، **اتحاف ... نفس المصدر** ، تحقيق احمد عبد السلام ، ص 117 ـ 118 ، اسقط احمد باشا 1000 ريال كراء على كنيسة باب البحر ثم امر بتوسيعها .

(38) راجع الرسالة الطويلة المؤثرة التى حررها قنصل فرنسا بتونس وأرسلها الى أحمد باشا يرجوه منح أخوات القديس يوسف مساعدته بـ : **أ. د. ت. ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 7** ، وهى بتاريخ 19 اكتوبر 1854 .

(39) راجع رسالة البابا بيوس التاسع الى أحمد باشا ، الملحوظة رقم 19 المنشورة اعلاه . كذلك رسالة ثانية من البابا الى أحمد باشا وجاء فيها : « ... وأردنا ان نخاطبكم بهذا المكتوب لنعرض الى حضرتكم (كذا) السامية مخصوص الصداقة وشكر الاحسان الذى حصل بقلبنا فى وارد سيادتكم ولا شك عندنا بأن حضرتكم تعود تفعل مع هذا الاخ المبجل (ويقصد به الاسقف دو روساليا) ومع هؤلاء الرهبان ومع ساير الكاثولكيين القاطنين بعمالتكم السامية (؟) وبقدرتكم القوية ،،، » ، راجع : **أ. د. ت. ملف 755، صندوق 64، وثيقة رقم 20** . رسالة من البابا بيوس التاسع الى أحمد باشا بتاريخ 10 فيفرى 1847 .

(40) ***أ. د. ت. ملف 755 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 3*** *، أمر من أحمد باشا بتاريخ 26 جانفى 1846 .*

(41) يذكر ابن أبى الضياف أن الباى توقف فى حمله وقد أفتاه بعض الراسخين فى العلم بجواز حمله اذا لم يعتقد معتقد اهله ، وأفتاه آخرون بالمنع ... راجع **اتحاف ،،، نفس المصدر** ، تحقيق أحمد عبد السلام ، ص 176 .

مؤثرة الى سوتر اسقف تونس جاء فيها : « ان الاب بورغاد يعد مبشر الانجيل بحق ، بحيث تمكن بفضل موارد الاحسان والصدقة ان ينشىء بتونس مستشفى ومعهدا حيث يتلقى المسيحيون والعرب واليهود جميعهم تعليم لغتنا وكذلك المبادىء الاولية للمعرفة . هل تعرف اجمل من هاته الطريقة لنشر الانجيل ؟ » (42) .

ولكن هل هناك نجاح اثمن من هذا التأثير الذي خلفه الاب بورغاد واخوات القديس يوسف ولافيجرى فيما بعد ، على المجتمع التونسي فى ميدان التعليم حتى يطلب باى تونس منحه قسيسين اثنين يقومان بالاشراف على تعليم ابناء البلاط والطبقة الحاكمة بقصره بالمرسى ؟ (43) . وكذلك التجاء الامهات المسلمات الى تعميد ابنائهن حتى يضمن لهم الصدقة المسيحية عندما اجتاحت المجاعة البلاد التونسية فى العقد السابع من القرن الماضى، وتفشت الامراض واصبحت الطبقة الفقيرة من الشعب لا تجد حتى قوت يومها (43 مكرر) .

ولقد استمرت هاته السياسة فى عهد محمد باى ، خلف احمد باشا حيث انشئت مدرسة انجليزية – مالطية سنة 1856 فتحت ابوابها للناس جميعا وخاصة للمسلمين الذين وقع التاثير عليهم لجلبهم الى الديانة المسيحية ذات الاتجاه الانكيلكانى (44) . كذلك نشطت الحكومة الايطالية فى انشاء مدرسة بتونس قرب قنصليتها فى العقد السادس من القرن الماضى (45) .

والواقع ان التأثير الذى احدثه القنصل الفرنسي ليون روش (Léon Roches) فى محمد باى وخلفه محمد الصادق باشا لتوفير المعاهد والمستشفيات وبناء الكنائس وانشاء مقابر للجاليات المسيحية ومد يد المساعدة لجميع البعثات التبشيرية خاصة التى تتمتع بحماية القنصلية الفرنسية (46) ، كان هذا التأثير عميقا وحاسما ، ولابد ان نعرف ماضى ليون روش لنتحسس مدى عمق هذا التأثير على سلوكه وتفكيره (47) ثم الغيرة التى ما فتىء يظهرها كلما سنحت الفرصة لذلك .

كان محمد باى يسر الى ليون روش فى كل شىء . وكان لا يفارقه كظله خصوصا اذا اخذنا بالاعتبار ان روش كان يجيد العربية ، وكثيرا ما يستشهد

---

(42) Abbé François Bourgade, *Association... op.cit.*, pp. 23-24.

(43) Docteur Arnoulet, *op.cit.*, p. 159.

(43 مكرر) **أرشيف وزارة الخارجية العثمانية** : من تقرير حرره احد الرعايا الايطاليين عن الوضعية الاجتماعية والسياسية لولاية تونس، وسوف ننشره قريبا على صفحات هذه المجلة.

(44) Ibid., p. 173.

(45) Guerrin, *op.cit.*, p. 60.

Léon Roches, *op.cit.*, t. II, pp. 250-206.

(46) يحتفظ لنا ارشيف الدولة التونسية عددا من رسائل ليون روش وهى تعكس مدى الحرص الشديد الذى بذله روش باعتباره حامى المصالح الكاثوليكية ، راجع : **ا. د. ت. ملف 755 ، وثيقة رقم 29 و 31 وملف 756 وثيقة رقم 7 وملف 759 وثيقة رقم 3 وملف 763 وثيقة رقم 3** .

(47) كان ليون روش شخصية غريبة الاطوار ، لعب دورا سياسيا فى الاربعينيات من القرن الماضى كمستشار للامير عبد القادر ، بعد أن أسلم وتزوج بجزائرية ثم ارتد عن ذلك وسافر الى مكة متنكرا ويذكر أنه خلال زيارته للكعبة وقبر الرسول ، كان يتحسس صليبه الذى أخفاه فى طى ثيابه ، وهو يشكر العناية الالهية التى هدته الى احتضان الدين المسيحى من جديد ، وكان يتالم أشد الألم من ماضيه ، راجع رسالته الى والدته بهذا الخصوص بـ : Léon Roches, *op.cit.*, t. II, pp. 205-206 :

بالقرآن والحديث والسنة فى خلواته مع محمد باى (48) وهذا شىء ارتاح له هذا الاخير ووقع منه موقعا كبيرا ، وهو الذى عرف بضعف شخصيته وجهله وبساطته ، ومن الطبيعى ان ينجح روش فى مساعيه لكل ما يمس نشاط المبشرين بتونس .

اما فى عهد محمد الصادق باشا فقد شهدت حركة نشر المسيحية نموا مطردا وشاملا لاشعاعها بمختلف مدن الولاية ، كما ركزت مظاهر وجودها وتاثيرها مع الزمن نتيجة تزايد المصالح الفرنسية والدعم الادبى الذى ما فتئت القنصلية الفرنسية تقدمه لرجال الكنيسة والبعثات التبشيرية عموما (49) ، فضلا عن مختلف الخدمات التى كان الباى محمد الصادق وحكومته يوفرونها (50) ، كالاعفاء من جميع الاداءات (51) ، ومد يد المساعدة لشراء دور لاسقف تونس (52) ، وموافقة محمد الصادق باشا بتاريخ جويلية 1862 على منح الاب اغستينو (Agostino) دارا لتصبح معهدا تقوم فيه الاخوات بجمع الاطفال الفقراء وتدريسهم (53) . اما الاخت دافيس (Sœur Daffis) فقامت بفتح معهدين بسوسة كان احدهما مجانا ، كما فتحت مستوصفا لاستقبال كل المرضى من المواطنين العرب الذين يرغبون فى ذلك (54) . وقد

(48) احمد ابن أبى الضياف ، **اتحاف** ، ج 4 ، ص 193 ، يصف لنا أدق وصف حيث يقول متحدثا عن ليون روش : « يتكلم بالعربية ويحسنها نطقا وكتابة ويستشهد بآيات قرآنية واحاديث نبوية ، جال فى اقطار المغرب ، وركض فى كل ميدان وهب مع كل ريح فقام الباى بتلقيه فى بيت قصره ، وهو أول قنصل قبل بهذه الكيفية الجارى بها عمل الوقت مع سائر القناصل . وترامى على الامتزاج بهذا الباى ومداخلته تراميا يزرى بمنصبه ولم يعهد ممن تقدمه ، وكأنه آنس ضعفا (فى القريحة) فاستعمل الفضول فى ابداء النصائح وتلوينها وهو أول من أظهر ذلك من قناصل جنسه وله فى ذلك مراد » .

(49) لهجة ليون روش فى مراسلاته وتدخلاته لدى محمد الصادق باشا لأقوى دليل على الاهمية التى توليها القنصلية لرجال الكنيسة فى نشر المسيحية وقد كتب روش رسالة الى الباى يخبره فيها أنه : « أعطى أوامره للموظفين الفرنسيين فى بنزرت وغار الملح وسوسة والمنستير والمهدية أن يفتشوا فى مقر اقامتهم ، أماكن صالحة لبناء أو توسيع الكنائس أو المقابر »
راجع : **أ. د. ت. ملف 763 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 3** ، رسالة من روش الى محمد الصادق باشا بتاريخ 7 افريل 1861 .

(50) كان الباى يمنح لاسقف تونس موظفا برتبة « اوضة باشى» (رتبة عسكرية) مماليك وزوج جوانب وزوج مماليك لرد البال منه واحضار كروسة له بثلاثة زوايل يسافر بها وثلاثة زوايل لحمل ضرورياته وخطاب عمال الاماكن المذكورة (سوسة والمهدية والمنستير وصفاقس وجربة والوطن القبلى وبنزرت) بقبوله فى محل يليق به ويناسبه واجراء المونة له ولمن معه من المتعنيين وغيرهم وعلف دوابهم مدة اقامته ويردوا البال منه فى ساير الاحوال »
راجع : **أ. د. ت، ملف 755 . صندوق 64 ، وثيقة رقم 26** ، رسالة من امير اللواء رستم ، مستشار وزارة الخارجية الى الشيخ عبد العزيز بوعتور ، رئيس كتاب وزارة المال. وهى بتاريخ 3 ربيع الاول 1279/20 اوت 1862 .

(51) **أ. د. ت. ملف 756 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 26** رسالة بامضاء الوزير الاكبر خير الدين بتاريخ 3 رمضان 1290/26 اكتوبر 1873 ومما جاء فيها : « ... ان قسم العمل يوافق على اجراء الكنيسة المذكورة مجرى ساير جوامع المسلمين وكذلك أماكن الخير التى ليست بذات دخل ، وبناء على ذلك فان الكنايس المعدة للعبادة الكاثوليكية وما يسكنه البباصات من الاماكن بتلك الكنايس والمكاتيب العمومية الدينية والمستشفيات تعفى من جميع المراسيم الموظفة من الدولة لا سيما الخروبة الموظفة على الكراء التقديرى ... » .

(52) منح الباى مبلغ 1875 ريال كشراء دار سيدى المرجانى ، راجع : **أ. د. ت. ملف 756 ، صندوق 64** ، وثيقة رقم 6 ، رسالة من حسين مستشار وزارة المالية الى مدير المال القائد نسيم .

(53) L'Abbé A.F. Leynaud, *Hadrumète Sousse*, pp. 67-68, Sousse, 1903.

(54) *Idem*, pp. 82-83.

ادركت هاته الاخت ان حملة التعليم والتطبيب والاحسان على عكس حملة السلاح ، هى الابقى والادوم والاكثر تاثيرا ، ثم ان طبيعة نشاطها لم تهمل ايضا حبها لوطنها فرنسا حيث عرفت كيف تجعل الآخرين يحبونها قبـل انتصاب الحماية الفرنسية على تونس (55) .

اما فى سنة 1871 فقد انشئت مدرسة بحلق الوادى على يد اخوة المذهب المسيحى (Frères de la Doctrine chrétienne)(56) . ومن جهة اخرى وهبت الحكومة التونسية سنة 1874 دارا كائنة بسوق البراملية داخل باب البحر بتونس الى « الرهبان المعروفين باخوة المكاتب النصرانية لتعليم الصبيان » (57) . وفى السنة الموالية قدم الاخوة المبشرون لافريقيا (Frères missionnaires d'Afrique) الى تونس بوصفهم القائمين على معهد ومستشفى سان لوى (58) . وفى سنة 1879 انشات اخوات القديس يوسف مدرسة بجربة، ثم نجحن فى فتح مدارس بالمنستير والمهدية وبنزرت وتونس (59) .

لقد لعب التنافس بين مختلف اتجاهات المبشرين دوره فى انشاء هذه المدارس والمستوصفات وتعددها وجلب المواطنين اليها ، الا ان هذا الميدان سيعرف دفعا جديدا وحيوية وابعادا عميقة على يد المبشر الشهير الكردينال لافيجرى . ولابد ان نقف عند هذا المبشر اللامع قليلا باعتباره احد الوجوه التاريخية المسيحية التى اثرت بعمق على فلسفة التبشير ، وطبعتها بتفكيره وسلوكه وجرأته فى شتى الميادين، ودون ان نتعرض الى المساعى الجبارة التى قـام بهـا الكردينال لافيجـرى لاحيـاء وبعث الكنيسة المسيحيـة بالجـزائر وتونس ، نؤكد انه كان يعتبر الاسلام كاشد اعداء المسيحية ، وان واجبه يفرض عليه محاربة هاته القوة العمياء والخطيرة التى يسمونها الاسـلام ـ ولكن بدون استعمال السلاح ـ ثم العمل على وقف نشر القرآن لدى الزنوج الذين يجهلونه ، وكذلك السعى ايضا بحذر ولكن باصرار للقضاء عليه لدى الشعوب التى استولى عليها منذ قرون ، ذلك ان القرآن يعد شريعة عمياء ، شريعة الكـذب واللا أخلاق » ، (60) ، وكان لافيجرى يعتقـد ان على فـرنسا حلين تجاه الشعوب المغلوبة على امرها ، اما طرد المسلمين الى الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر ، او السعى الى تطبيق سياسة ادماج الشعوب عن طريـق المسيحية (61) ،، واعتبر الحل الثـانى كاكبر امـانى لافيجـرى (62) وقد صرح لرجال الكنيسة بالجزائر : « يجب انشاء المدارس فى كل مكان وكما تعلمون انها الاداة القوية والضرورية لتحقيق سياسة الادماج ، حيث نستطيع بفضلها اذابة كل العناصر التى تنتمى الى امم مختلفة » (63) .

وقد خاطب لافيجرى الاميرال قيدون (Gueydon) ، حاكـم الجزائـر

(55) Idem, p. 92.

(56) Machuel, *op.cit.*, p. 6.

(57) أ. د. ت. ملف 756 ، صنـدوق 64 ، نسخة من أمر على بتاريـخ 1 محـرم 11/1291 فيفرى 1874 .

(58) Machuel, *op.cit.*, p. 6.

(59) Guerrin, *op.cit.*, p. 65.

(60) Klein, *op.cit.*, p. 84.

(61) J. Tournier, *Le cardinal Lavigerie et son action* **politique** ***(1863-1892)***, p. 22, Paris, 1913.

(62) Fournel, *op.cit.*, p. 162.
راجع ايضـا : Grussenmeyer, *op.cit.*, t. I, p. 155.

(63) Gussenmeyer, *op.cit.*, t. II, p. 18 : Leynaud, *op.cit.*, p. 101.

العام قائلا له : « انى اؤكد لكم بانكم بالعمل على تقريب الاهالى الينا بتعليمهم وتقديم الاحسان للناس جميعا ، فانكم تقومون بخدمة فرنسا . ان فرنسا لا تنجب كثيرا من الرجال لتعمير الجزائر ، وعليه يجب ان نعوض ذلك بفرنسة المليونين من برابرتنا المستعربين » (64) .

وقد انشأ لافيجرى بالجزائر مدارس عدة وبنى قرى لاطفال العرب المسيحيين والملاجىء والمستوصفات واكثر من اغداق المساعدات على المعوزين لكسب العطف وترقيق القلوب وجلبها شيئا فشيئا الى احضان المسيحية ، وقد جوبه لافيجرى من طرف السياسيين الذين كانوا يخشون انتفاضات العرب نتيجة نشاطه التبشيرى الذى أثار استياء المواطنين ، الا ان لافيجرى لم يثنه ذلك عن الاستمرار فى تطبيق سياسته تلك ، وقد كتب الى نابوليون الثالث يخبره فيها انه خلال اقامته بالمشرق انشئت ملاجىء للاطفال بالقاهرة وبيروت ودمشق وازمير والقسطنطينية وكامل ارجاء الامبراطورية العثمانية، وانه كان يستقبل الاطفال اليتامى المسلمين ويتبناهم ويعمدهم ويربيهم بدون صعوبة ودون ان يطالب احد بعكس ذلك (65) . وقد اخلص الى القول فى رسالته : « انى افكر بالخصوص ان الوقت قد حان لنبدأ عملنا ، متحملين المسؤولية ، بممارسة الاحسان ، على الاقل، تأثيرا اخلاقيا ودينيا على العرب » (66) .

أثار انشاء لافيجرى القرى العربية ـ المسيحية وجمع الاطفال وتعليمهم وتنشئتهم على الطريقة المسيحية ، اثار ذلك خوف حاكم الجزائر العام ماك ماهون (Mac-Mahon) واستياء الاهالى الذين طالبوا باسترداد هؤلاء الاطفال . وقد رفض لا فيجرى اعادتهم معلنا ان القضاء عليهم افضل الف مرة من بقائهم عند آبائهم (67) . وكان لا يالو جهدا فى تحقيق المزيد من انشاء الملاجىء والمدارس والمستوصفات بكامل التراب الجزائرى ، غير انه كان يتطلع الى تونس التى تمثل بالنسبة للمسيحية اجمل رهان لبعث كنيستها بقرطاج .

وعندما نجحت الجيوش الفرنسية فى احتلال تونس صرح لافيجرى بان ذلك يمثل الانتصار النهائى للحضارة المسيحية فى هاته الشعوب البربرية (68). ومن جهة اخرى نادى فى وجه المبشرين الشبان : « تعالوا يا ابنائى ، اسمعوا نواقيسكم ، يجب ان نعلن عن بعث قرطاج المسيحية . ان عرب تونس ليسوا مطلقا مسلمين متعصبين ، وسوف يخضعون بسهولة لتقاليدنا .. » (69) .

وفى تونس لم يفتأ لافيجرى يدافع ويطلب بالاكثار من انشاء المدارس والمستشفيات والملاجىء فضلا عن بناء الكنائس فى طول البلاد وعرضها ، وقد انشأ معهد سان لوى بقرطاج سنة 1880 الذى سيتحول فى السنة الموالية الى معهد سان شارل بتونس ، ثم قام بانشاء مدارس ببنزرت وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وباجة وجربة وقد عهد بالتدريس فيها الى اخوات القديس يوسف (70) ، وكان يبذل فى هذه المشاريع حتى امواله الخاصة (71) ، كما

(64) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. I, p. 177.
(65) Ibid., *op.cit.*, t. I, p. 170.
(66) *Idem*, t. I, p. 169.
(67) *Idem*, t. I, p. 161.
(68) *Idem*, t. II, p. 15.
(69) *Idem*, t. II, p. 162.
(70) Machuel, *op.cit.*, p. 7.
(71) Mgr. Pons, *op.cit.*, p. 247.

أنشىء اكبر معهد من طرف الاخوات سيون (Sœurs de Sion)
بتونس سنة 1882 .

وقد ذكر لوى ماشوال (Louis Machuel) اول مدير للتعليم بتونس في عهد الحماية انه توجد بالبلاد سنة 1883 ، اربع وعشرون مدرسة ومعهدا وان عشرين منها يشرف عليها رجال الدين المسيحيون ، اما الاربع الباقية فهى المعهد الصادقى وثلاث مدارس اسرائيلية حيث عهد بالتدريس فيها الى معلمين واساتذة علمانيين (72) .

اما نوعية هذا التعليم وبرنامجه واتجاهه فاننا نملك تصريحا بهـذا الخصوص للافيجرى حيث يوضح بشكل قاطع لا لبس فيه خطته عندما قال : « انني ، والحق يقال ، لا استطيع ان اعلمهم الا ما كنت اومن به شخصيا ... وانه من الافضل ان نحب جميع النـاس مهما كانت الجنسيـة التى ينتسبون اليها عوضا عن قتل المسيحيين الكلاب ، وان فرنسا وامراءها هم اكبر فى نظر الله والناس من تركيا وسلاطينها (73) »

ومن جهـة اخرى انشأ لافيجرى ملجـا للفتيات بالمرسى تقـوم اخـوات القديس يوسف بالاشراف عليـه ، كما انشأ قرب اقامتـه ملجأين للاطفـال اليتامى (74) ، ثم وسع مستشفى سان شارل ، وانشاء مستشفى آخر باحدى الثكنات العسكرية التى عهد بها اليه (75) ، كما طالب بفتح مكان للبر والاحسان بالمنستير (76) وكان يصرح دوما : « ساعدوا الفقراء جميعا ، عالجوا جرحاهم ، داووا مرضاهم ، انكم بذلك تشرفون عقيدتكم وتخدمون فرنسا المسيحية . ذلك ان طريقتنا لخدمتها وللدفاع عنها ليس لجعلها مخيفة ومروعة بل لجعل الآخرين يحبونها بفضل اخلاقنا واحساننا » (77) .

ان المساعدات والخدمات الطبيـة التى قدمتها اخوات القـديس يوسف وخاصة الاخت روساليا (Sœur Rosalia) التـى كـانت تـزور العـرب والاسرائليين الفقراء بتونس وضواحيها ، قد اثرت على الاوساط الاسلامية (78)، وجعلتها تقدر هذا الاخلاص الظاهرى والتفانى المقنع .

وتماشيا مع هذا المبدا قام لا فيجرى بزيارة عدد من المدن التونسية التى قاومت الحماية ، موزعا الاموال بسخاء على فقرائها ومعوزيها ، كما كان يتدخل لدى السلط الفرنسية للتخفيف من الغرامات التى فرضت على الاهالى (79) .

---

(72) Machuel, *op.cit.*, p. 7.
(73) Grussenmeyer, *op.cit.*, t. II, p. 434.
(74) Guerrin, *op.cit.*, p. 42.
(75) L'Abbé Bombard, *Le Diocèse de Carthage, notes historiques*, p. 10, Tunis, 1899.
(76) **أ. د. ت. ملف 764 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 24** ، رسالة من المقيم العام الى الوزير الاكبر التونسى بتاريخ 19 سبتمبر 1882 .
Leynaud, *op.cit.*, p. 109.
(77) Arnoulet, *op.cit.*, pp. 153-154.
(78) G. Goyau, *Le second acte de la conquête (tunisienne) : Promenade pacificatrice de Lavigerie*, pp. 793-791.
(79) مذكورا فى : عبد المجيد الشرفى ، **نفس المصدر** ، ص 150 ، ملاحظة رقم 45 . ونحن نذكر أنه فى نفس الوقت الذى يقدم فيه لافيجرى باغداق الأموال والمساعدات المالية على الفقـراء ، نراه من جهة أخرى يطلب من البـاى السماح له باستعمال اليانصيب لاول مرة بتونس لغرض جمع المال ، وقد سمح له بذلك ، راجـع : **أ. د. ت. ملف 758 ، صندوق 64 ، وثيقة رقم 12** امر مؤرخ فى 4 ربيع الثانى 23/1299 فيفرى 1883 .

وقد دافع بول كامبون عن نشاط المبشرين هذا ، وكان يرى ان تونس كانت خاضعة دوما لنظام الحماية الكاثوليكية الفرنسية ، وانه شخصيا يعتبر حماية المصالح الدينية كاحد واجباتـه المقدسة التى يمكن ان تنشأ بالبـلاد التونسية (80) .

ان نشاط لافيجرى التبشيرى ، بعد الاحتلال الفرنسى للبلاد والحرية التى تمتع بها فضلا عن احاطته بعدد من المبشرين المخلصين والمدد الادبى والمعنوى الذى كان يلقاه لدى البابا والمنظمات المسيحية فى فرنسا ،قد مكنه من تحقيق ما عجزت عنه السلطة السياسية والعسكرية كتركيز التاثيـــر الفرنسى (81)، وتدعيم مكانة فرنسا ، ونشر الحضارة الغربية ـ المسيحية عن طريق اللغة الفرنسية ، وكسب ثقة وعطف الطبقة النيرة ، وكذلك دغدغة مشاعر العوام واحاسيسها بفعل مختلف المساعدات التى تقدم اليه حتى تكسب بساطتها وتستغل جهلها وتستميل اليها أبناءها وبناتها شيئا فشيئا .

على ان دور لافيجـرى فى احيـاء المسيحية وتأصيلها ونشرها والدعـوة اليها على الصعيد الداخلى والخارجى ، مستغلا كل الوسائل لتحقيق هـــذا الغرض ، كان دورا رائدا بحيث لم تعرف الكنيسة مثله فى القرن الماضـــى مبشرا ذكيا مخلصا ، لامعا دؤوبا ، ذا اهداف مرسومة ومحددة عمل السن والاحداث على تعميقها لديه . ولا نتردد اليوم، استنادا الى الوثائق التاريخية التى امكن الحصول عليها فضلا عن التآليف العديدة بمختلف اللغات من اعتبار حركة لا فيجرى ومن سبقه حركة خطيرة واسلوبا جديدا صليبيا شنه رجال الكنيسة والمبشرين على الاسلام والشعوب الاسلامية ، ومن المؤلم حقا ان نلمس مدى التاثير الكبير والسلبى الذى خلفه نشاط المبشرين ، هذا النشاط الذى بعد بين الديانتين ، وعمق الخلاف بينهما ، وحارب حتى ماضى العرب والاسلام المجيد الذى تفتخر به الانسانية ، كما كان هذا النشاط دوما فى خدمة السلطة السياسية الفرنسية القائمة آنذاك .

☆☆☆

ان تطلعنا الى العمل والتعاون النزيه لا يمنعنا من حق دراسة الماضى والاصداع برايينا فيه بكل تجرد ، بل اعتقد ان مؤتمرنا ولقاءنا هذا من شانه ان يساعدنا على تصفية هاته التركة الاليمة التى خلفها نشاط المبشرين فى بلادنا خلال العصور الحديثة والمعاصرة .

عبد الجليل التميمى

كلية الآداب ـ الجامعة التونسية .

(80) Guerrin, *op.cit.*, pp. 53-54.

(81) G. Goyau, *La France missionnaire dans les cinq parties du monde*, t. II, pp. 324-325, Paris, 1948.

الخزينة الجزائرية

1830 - 1800

ناصر الدين سعيدوني

ان أغلب موظفى الدولة الجزائرية تتصل أعمالهم من قريب او بعيد بنشاط الخزينة المـالى (1) ، الا ان الاشراف الحقيقي والتصرف العملى فى شـؤون الخزينة كان من نصيب الداى والخزناجى . غير ان اشراف الداى على الخزينة اشراف معنـوى يتمثـل فى الحرص على ضمان المصادر المـالية التى تزود الخزينة ، ومراقبة النشاط المـالى ، كدفع أجور الجند دون تأخير ، او اقرار تحديد اسعار المنتوجات ، ومعاقبة المتلاعبين بالاسعار ، والنظر فى تقييم عملة الخزينة والعملات الاجنبية الاخرى (2) . وقد تطلبت هذه الاعمال من الداى حضور جلسات ديوان موظفيه فى الصباح والانفراد بكتابه فى المسـاء (3) ، حتى يحقق ويسوى الامور المتصلة بنشاط الخزينة .

اما الخزناجى فهو فى الواقع صاحب الخزينة ، وحارسها المكلف بايداع مصادر دخل الدولة فى شكل نقود ومقتنيات ثمينـة ، والاشراف على وجوه الانفاق المختلفة ، كدفع اجـور الأوجاق (4) ، ولهذا نستبعد حدوث التبـاس

---

* هذا الفصل مستخرج من الرسالـة الجامعية التى تقدمت بها الى جامعة الجـزائر لنيل درجـة دكتورا الحلقة الثالثة ، ونوقشت يوم 15 جـوان 1974 تحت اشراف الاساتـذة : **البحراوى** رئيسا ، ابو القاسم سعد الله مقـررا ، وعبد الجليـل التميمى عضوا وعبد العظيـم رمضـان عضوا . وكان عنوانها : **النظام المالى للايالة الجزائرية (1800 ـ 1830)** .

(1) اهم هؤلاء المـوظفين : بيت المـالجى ، خوجة الخيل ، وكيل الخـرج ، آغـا العرب ، بعض القياد والخوجات ، كخوجات : الغنائـم والرحبة والزرع والعيون ، الباى ، اعضاء ديـوان البايليـك المحلى ، شيخ البلد ، المحتسب المزوار ، الخ... وقد فصلنـا ذلك فى مدخـل رسالتنا ، راجع أيضـا :

A. Devoulx, *Tachrifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger*, pp. 20 - 23, Alger, 1852.

P. Boyer, « Des pachas triennaux à la révolution d'Ali Khodja » Dey (1571-1817) pp. 114-119, in, *Revue Historique*, 1970.

Rozet, *Voyage dans la Régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique*, t. III, pp. 113-116, Paris, 1833.

Vaysettes, « Histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1973 jusqu'à la chute d'Hadj Ahmed, pp. 116-117, *Revue Africaine (R.A.)*, 1858-1863.

(2) Peysonnel et Desfontaines, *Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger*, p. 412, Publiés par M. Dureau de la malle, Gide-Paris, 1838.

(3) V. de Paradis, *Alger au XVIIIe siècle*, p. 9, Alger, 1868.

(4) Tachrifat, *op.cit.*, p. 20.

بين هذا الموظف السامي الذى جرت العادة على ان يكون تركيا والذى يعرف غالبا بالخزناجي وفي بعض الاحيان يرد ذكره تحت اسم الخزندار (5) ، وبين المشرف على مالية البايليك من نفقات ومصاريف محلية والمدعو ايضا بالخزناجي او باش خزناجي (6) . يباشر الخزناجي مهامه المالية بحضور الداى واعضاء الديوان (7) ، فيتسلم موارد دخل الايالة الجزائرية ليودعها فى خزينة الدولة ، او يسحب المبالغ المستحقة لسد نفقات الدولة . وكانت العادة تقتضى عند اجراء هذه العمليات المتعلقة بالخزينة الاعلان على المبالغ التى يتسلمها او يدفعها كأجور بصوت عال فى حضرة الداى والديوان (8) . ويساعد الخزناجي فى هذا العمل عادة بعض الكتاب كالمكتباجي او كاتب الدولة الأول ، الذى بيده سجل محاسبات الدولة الرئيسى المشتمل على ما تحتويه سجلات بقية الكتاب الآخرين من مبالغ مالية (9) وقوانين عسكرية ، وأسماء ورتب واجور الفرق الانكشارية من أوجاق ومحلة ونوبة ، ولهذا يعتبر هذا الكاتب أهم مساعدى الخزناجي حتى انه يمنح لقب أفندى (10) . كما يعتبر من بين مساعدى الخزناجي الدفتردار او كيل الخرج الكبير (11) ، المكلف بتسجيل مصادر دخل الايالة الجزائرية ، كالضرائب ، ومراقبة مخازن الدولة . وقد أزاحه المكتباجى عن مكان الصدارة فى الاشراف على السجلات المالية نظرا للتطور الذى عرفه نظام الحكم بالايالة الجزائرية ، فاصبح يعتبر موظفا ثانويا منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادى (12) ، وكذلك الشأن بالنسبة لوكيل الخرج الصغير (13) المهتم بسجلات الديوانة وغنائم البحر .

ومن الراجح ان الحاجة الى هؤلاء الكتاب ذوى النفوذ الادبى والكلمة المسموعة والمكانة المرموقة (14) ، والاتصال المباشر بالخزناجي ترجع الى عدم ثقة نظام الحكم فى الموظفين ذوى الصلاحيات المالية خشية حدوث زيادة او نقصان فى ودائع الخزينة او زيادة ونسيان فى حسابات الدولة المالية .

اما بقية مساعدى الخزناجي فيأتى فى طليعتهم امين السكة الذى يتكلف برعاية ومراقبة ضرب النقود المختلفة وتقدير قيمة المجوهرات بعد وزنها وفحصها (15) ، ويستعين امين السكة فى عمله هذا بأجيرين من اليهود

(5) Ben-Cheneb, *Mots turcs et persans conservés dans le parler algérien*, pp. 38-39, Bastide-Jourdan, Alger, 1922.

(6) Dubois Thainville, *Mémoire sur Alger 1809*, publié par G. Esquer, p. 128, Paris, 1927.

(7) Louis de Tassy, p. 228.

(8) Shaw, *Histoire de la monnaie 1252-1894*, p. 167, traduit de l'anglais par M. Raffalovich, Guilloumin et Cie, Paris, 1896.

(9) Morgan, J., *Histoire des états Barbaresques*, traduit de l'anglais par M. Boyer de Prebandie, T. I, *Royaume d'Alger*, Paris, 1757.

(10) Khūdja, *Ḥamdan Bin Othmān, aperçu historique et statistique sur la Régence d'Alger*, intitulé en arabe le « miroir », p. 104, Paris, 1833.

(11) Weissman, N., *Les Janissaires*, p. 70, Paris, 1964.

(12) حسبما يفهم من كتابات فانتور دوبارادى ان تاريخ هذا التطور فى منصب الدفتردار هو سنة 1788 . V. de Paradis, *op.cit.*, p. 115-116.

(13) Weissman, *op.cit.*, p. 70.

(14) المصدر نفسه .

(15) جاء فى دفتر التشريفات ان هذا الموظف يشرف ايضا على تحضير وبيع الروائح العطرية ، راجع : Tachrifat, *op.cit.*, p. 20.

أحدهما للتحقق من النقود المشكوك فيها ويدعى « العيار » والآخر لوزن الأنواع التى تتسلمها الخزينة (16) ويدعى « الوزان » . واما الخزناجي نفسه فانه يتولى منصبه بعد ترشيحه من طرف الداى وأعضاء الديوان ، وغالبا ما يرشح هؤلاء لمنصب الخزناجي من يتوسمون فيهم الاخلاص بغض النظر عن كونهم عاجزين او غير أكفاء (17) ، فالشرط الاساسى فى نظرهم ان يكون الخزناجي تركيا (18) ، ملما بثقافة تسمح لصاحبها بالقيام بهذه الوظيفة السامية ، ولكن حتى هذا الشرط الاخير لم يحترم فى كل المناسبات ، ولهذا تقلد هذا المنصب فى بعض الاحيان من لا يحسن الكتابـة والقـراءة ان صحت روايـات بعض الرحالة (19) ، ولعل هذه الظاهرة راجعة فى أساسها الى الفوضى التى تحدث اثر اغتيال الدايات او الى كون غالبية اعضاء الديوان أميين .

وهذا الاختيار ضرورى لأهميـة دور الخزناجي الذى يشرف على امـور الخزينة ، وهى المؤسسة التى تمثل العصب الحيوى للدولة وان كانت هـذه الأهميـة التي يحظى بها الخزناجي تعود فى واقع الامـر الى التطور التاريخي والظروف الاقتصادية والسياسية التى عاشتها الايالة . فالخزناجي الذى كان ابان الفترة الاولى مجرد خوجة بسيط مكلف بمهمة الاشراف على الصندوق المالى تحت اوامر الكتاب الكبـار (20) ، أخـذ يكتسب بالتدريج صلاحيـات الكاهيـة أى المساعد الرئيسى للدايات الاوليـن (21) ، حتى انحصر نفوذ الكاهية عشية الاحتلال الفرنسى فى الاشراف على الحرس المدنى .

ولعل هذا التدرج فى الوصول الى النفوذ والسلطة يعود الى طبيعة نظام الحكم بالايالة ، الذى يعتمد اساسا على جمع الاموال وارضاء الاوجاق بالهدايا والمرتبات العالية التي يوفرها المكلف بالخزينة او الخزناجى . وهكذا اصبح الخزناجى الشخصية الثانية المؤهلة فى الايالـة لتشغل منصب الداى حـال شغوره ، وهـذا الاختيار المتعارف عليه بقى معمولا به منـذ مـوت الداى على شاوش فى 5 أفريـل 1718 حتى سنـة 1805 . مما سمح باجـراء نـوع من الترقية التدريجية فى السلم الادارى مثل ترشيح خوجة الخيل لمنصب الخزناجي الذى كان يرتقى بدوره الى رتبة الداى (22) . ونظرا لهذا التوسع فى النفوذ لم يعد منصب الخزناجي ذا طابع مالى فقط ، بل أصبح له صبغة عسكرية ، فهو يقود الحملات العسكرية عند اقتضاء الامر ، كما حدث للخزناجي ابراهيم خوجة الذى جرد الحملات على الناحية الوهرانية لاخضاع الثائرين سنتـى 1734 و 1736 (23) .

وتؤكد كتابات المؤرخين والرحالة المعاصرين لتلك الفترة على مدى سلطة ونفوذ الخزناجي، فنجد فانتور دوبارادى (Venture de Paradis) يذكر باسم الوزير الاول 24 وتينيدا (Thénédat) يعتبره كبير البلاد بعد الداى، يخضع لأوامره باى

(16) Shaw, *op.cit.*, p. 167.

(17) Dubois Thainville, *op.cit.*, p. 128.

(18) Morgan, *op.cit.*, p. 352.

(19) Shaw, *op.cit.*, p. 167.

(20) Boyer, *op.cit.*, p. 112.

(21) المصدر نفسه ، ص 113 .

(22) المصدر نفسه ، ص 112 .

(23) H.D. De Grammont, « Relation entre la France et la Régence d'Alger au XVII[e] siècle », *R.A*, t. 23 (1879), p. 127 et 149.

(24) V. de Paradis, *op.cit.*, p. 115.

معسكر ويتقرب اليه بتقبيل يديه ورجليه (25) وحتى الوثائق الرسمية تشير اليه باحترام وتقدير ، ففى رسالة موجهة من طرف الخزناجى الى موظف سامى بالباب العالى تعود الى سنة 1237/21 ـ 1822 ، ورد ما نصه : « امير ايالة جزائر الغرب ... من طرف المخلص سيدى احمد خزناجى مدينة جزائر الغرب المحمية » (26) .

ويمكن ان نتعرف على الأشخاص الذين شغلوا منصب الخزناجى وكان لهم تأثير بالغ على النظام المالى للايالة واليد المطلقة فى شؤون الخزينة ، اعتمادا على بعض الوثائق والكتابات التاريخية (27) ، التى ورد فيها ذكر اسمائهم المرتبة على الشكل التالى :

ـ الخزناجى سى مصطفى	ـ فى عهد الداى حسن باشا	1791ـ1798
ـ الخزناجى سى مصطفى آغا	ـ فى عهد الداى مصطفى باشا	1798ـ1805
ـ الخزناجى محمد باشا	ـ فى عهد الداى الحاجى على	1809ـ1815
ـ الخزناجى حسين الجزائرى	ـ فى عهد الداى عمر باشا	1815ـ1817
ـ الخزناجى يحيى آغا	ـ فى عهد الداى » »	» »
ـ الخزناجى ابراهيم بن سليمان	ـ فى عهد الداى على خوجة	1817ـ1818
ـ الخزناجى احمد بن محمد	ـ فى عهد الداى » »	» »
ـ الخزناجى احمد	ـ فى عهد الداى حسين باشا	1818ـ1830
ـ الخزناجى ابراهيم بن سليمان	ـ فى عهد الداى » »	» »

وقد كان لهؤلاء الاشخاص الذين تولوا منصب الخزناجى دور رئيسى فى تنفيذ سياسة مالية خاصة بالايالة الجزائرية تتميز بجمع الاموال من مصادرها المختلفة مع الاقتصاد فى النفقات العمومية والخدمات الاجتماعية ، لا سيما اذا كانت تتعلق بمصلحة الاهالى (28) ، مما سمح لبعض الرحالة الاوروبيين ان

(25) فى مذكراته التى سجل فيها قصة مغامراته التى انتهت به الى ان يصبح خزناجى باى معسكر ، راجع : Emerit, « Mémoires de thénédat », p. 351 —

(26) A. Devoulx, « Recherches sur la coopération de la Régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grecque d'après des documents inédits », in, *R.A*, 1, (1856), p. 134.

(27) من الممكن أن هناك بعض الاشخاص الذين تولوا منصب الخزناجى لم نتمكن من اثبات اسمائهم لتعذر التعرف عليهم من خلال المصادر التى أمكن الرجوع اليها ، وهذه بعض المصادر المعتمدة فى اثبات هذه القائمة :

Ch. Féraud L. « Epherides d'un secrétaire officiel sous la domination turque à Alger, de 1775 à 1805 », in, *R.A*, t. 18 (1874), p. 295-319.

Devoulx, « Recherches sur la coopération de la Régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grecque d'après les documents inédits », in, *R.A*, t. 1-2 (1856-1857).

Robin, « Note .... ?

Abdeljelil Temimi, *Recherches et Documents d'Histoire Maghrébine, La Tunisie, l'Algérie et la Tripolitaine de 1816 à 1871*, document n° 7, p. 232, d'après : B.A, HH 22486.

راجع النص العربى لكتاب عبد الجليل التميمى ، **بحوث ووثائق فى التاريخ المغربى تونس ، الجزائر وليبيا من 1816 الى 1871** ، الوثيقة رقم 7 ، ص 252 ـ 254 ، تونس ، 1972 .

(28) راجع : الفصل الثالث : « وجوه الانفاق » المرافق العامة .

يلاحظوا بان مسؤولى الخزينة لم يفكروا فى سحب اى مبلغ منها ولو كانوا فى أشد الحاجة اليه (29) رغم ما تكدس فى هذه الخزينة من غنائم البحر، وأسلاب الحملات الداخلية، وغنائم الحروب الخارجية، كالاستيلاء على مدينة تونس سنة 1755، حيث استولى الجزائريون على مجوهرات نادرة وسلاح ثمين واموال طائلة تتراوح قيمتها حسب رواية فانتور دوبارادى من أربعة الى خمسة ملايين فرنك ذهبى اودعت كلها فى الخزينة (30).

ونحن وان كنا نعطى اهمية لهذه الغنائم والاسلاب فى اغناء الخزينة، الا أننا لا نطمئن الى كتابات بعض الاوروبيين (31)، التى ذهبت الى حد القول بأن هذه الغنائم هى الأساس فى تكوين الخزينة الجزائريه كما هو الشأن عند السيد غورى (Guerey) صاحب المذكرة المتعلقة بالخزينة الجزائريه المؤرخه فى سنه 1791 (32). بل ندخل فى اعتبارنا مجموع مصادر الدخل المتنوعه وعلى رأسها عوائد ضرائب والرسوم الداخلية، فكل ما نستفيده من روايات الكتاب الاوروبيين هو اخذ فكرة عامة عن ضخامة الثروات المجمعة فى الخزينة، والتى دفعت حكام الايالة وعلى راسهم الداى وموظفو الديوان الى سن قوانين خاصة واتخاذ اجراءات احتياطية كفيلة بضمان سلامة الخزينه وحفظ اموالها من الأيدى العابثة، ونستطيع ان نذكر من هذه الاجراءات مثلا مرابطة ستة عشر نوبتجيا لحراستها (33)، وتكليف الخزناجى وحده بالاهتمام بشؤونها لحصر مسؤوليه الاشراف عليها فى شخص واحد، وعملا بهذه الاجراءات والقوانين اصبح الخزناجى هو الموظف الوحيد المسموح له بدخول الخزينة لملء اكياس النقود وافراغها، عندما يحضرها له وكيل خرج الصوف والصائجى (34)، ويقوم أحد خوجات القصر الكبار الموضوعين فى خدمته باثبات قيمتها فى سجل خاص (35).

كما ان الخزناجى هو الشخص الوحيد الذى يستعمل مفتاح الخزينة (36) اذ يتسلمه من الداى بحضور رجال الديوان فى سقيفة القصر كل صباح ثم يعيده اليه عند الزوال بعد صلاة الظهر، وهكذا تظل الخزينة مغلقة كل مساء بالاضافة الى يومى الجمعة والثلاثاء (37).

وزيادة فى هذه الاحتياطات اختير موقع الخزينة بقصر الداى بجوار القاعة التى يجتمع فيها الديوان نفسه (38)، ضمن مستودعات ثلاثة لا نعرف

---

(29) *Aperçu Historique statistique*, p. 163.

(30) V. de Paradis, *op.cit.*, p. 61.
بالاضافة الى غنيمة تحصل عليها الجيش الجزائرى من التونسيين فى معركة وادى بومرزوق سنة 1807، راجع : Grammont, *op.cit.*, p. 368.

(31) مثل الكاتب بيرو، راجع :
Perrot, A.M *Alger esquisse topographique et Historique du royaume et de la ville d'Alger*, Paris, 1830, p. 50.

(32) H. Klein, « Le trésor d'Alger en 1791 d'après un mémoire de M. Guerey », *Feuillets d'Eldjazeir*, t. VI, (1913), p. 90.

(33) V. de Paradis, *op.cit.*, p. 106.

(34) عبد القادر، ص 73.
الصائجى موظف يخضع لاوامر الخزناجى مكلف بعد النقود الداخلة والخارجة من الخزينة.

(35) Boyer, *La vie... op.cit.*, p. 115.

(36) للخزينة مفتاح واحد يستعمل لفتح ثلاثة أبواب، واحد بمدخلها واثنين بداخلها.

(37) V. de Paradis, *op.cit.*, p. 107.

(38) Shaw, *op.cit.*, p. 169.

عنها الا القليل من التفاصيل لندرة المصادر واندثار قصر الجنينة لتعرضه للتخريب من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي .

وهذا ما يضطرنا الى ان نركز اهتمامنا على موقع الخزينة الجديد بحصون القصبة ، الذى اختاره لها الداى على خوجة ، عملا بوصية مستشاره وخليفته حسين فى شهر ديسمبر من سنة 1817 (39) . وبذلك استقرت الخزينة فى مكان حصين هو عبارة عن أقبية ودهاليز مقوسة سيئة الانارة ، دون مستوى الطبقة الارضية لقاعة الديوان ، ويؤدى الى هذه الدهاليز باب فى نهاية الرواق منخفض فى وضع منحرف بالنسبة للباب الرئيسى للقصر ، كتب اعلاه هذه العبارة « نصر من الله وفتح قريب ، يا فاتح الابواب افتح لنا أفضلها » (40) .

ويؤدى هذا الباب الى غرفة واحدة مكونة من جناحين يفصلهما حاجز ارتفاعه ثلاث اقدام (41) ويتصل هذان الجناحان بغرفة ملحقة بها احتياطى مالى مخصص للمصاريف الجارية والقضايا المستعجلة (42) ، ومن هذه الغرفة الاخيرة نصل عن طريق باب داخلى الى غرفة فسيحة طولها يتراوح ما بين عشرين الى اربع وعشرين قدما وعرضها حوالى ثمانى اقدام ، ذات نافذة محمية بشبابيك حديدية متينة تشرف مباشرة على الرواق ، ومما يلاحظ على هذه الغرفة الفسيحة أنها مقسمة بحواجز خشبية الى ثلاث غرف صغيرة (43) ، ليسهل استعمالها . وقد أطلق بعض كتاب الحملة الفرنسية على الغرف الثلاث الاولى من الخزينة اسم الخزينة الصغرى (44) . بينما اشاروا الى القاعة الاخيرة ذات الحواجز الخشبية بالخزينة الكبرى (45) .

اما تحديد مقدار ما تحتويه الخزينتان ، الكبرى والصغرى ، من الاموال والودائع فصعب التحقيق لان التقديرات التقريبية لهذه الاموال لا نعتمد على حسابتها ولا نطمئن اليها ، وذلك لاختلاف الروايات وغموضها وتضاربها واعتمادها على الاحصاءات الاحتمالية ، فضلا عن ان السجلات الرسمية للخزينة قد اختفت او ضاعت اثر الاحتلال واثناء الفوضى والنهب (46) المنظم من طرف اليهود وبعض الاهالى (47) ، فى جو من الغموض والمناورات التى تسبب فيها ضباط فرنسيون متورطون فى اختلاس كميات كبيرة من ثروات الخزينة (48) ، مثل المقادير المالية غير المحدودة التى اختفت من

J.T, Merle, *La prise d'Alger racontée par un témoin* préface et notes par M. H. d'Almeras, H. Jonquières, Paris, 1930, p. ? (39)

Feuillets d'El-Djazair, *op.cit.*, p. 53. (40)

B. Denniée, *Précis Historique et administration de la compagne d'Afrique*, Delannay, Paris, 1830. (41)

Un officier de l'armée d'Afrique favorable à Bourmont quelques notes sur trésor d'Alger, ? p. 5-6. (42)

Denniée, *op.cit.*, p. 51. (43)

Flandin J.B, *Notice sur la prise d'Alger de possession des trésors de la Régence d'Alger*, Paris, 1848, p. 7. (44)

(45) نفس المصدر .

Denniée, *op.cit.*, p. 5. (46)

Esquer, *op.cit.*, p. 365. (47)

Flandin, *op.cit.*, p. 22-40. (48)

Emerit, M. « Une cause d'expédition d'Alger, le trésor de la Casbah », in, B.S.H.M.C, (1954), p. 187.

صندوق يحتوى على ثلاثين الف فرنك (49) بشهادة السيد فيرينو (Ferino) المكلف بدفع رواتب جيش الاحتلال .

ولهذا لا نثق بما اكده كتاب الحملة الفرنسية مثل فلاندان (Flandin) ودونيي (Denniée) من اثبات المعلومات التى ادلى بها الخزناجى للسلطات الفرنسيه عند تسليمه لمفاتيح الخزينة : والتى مفادها ان لا وجود لسجلات مصادر دخل الخزينة ونفقاتها (50)، بل يتبادر الى اذهاننا الشك فى صحة هذه الروايات وتلك التقديرات لثروات الخزينة لعدة اعتبارات ، ذلك ان سلطات الايالة قد اشتهرت بحرصها على ثروات الخزينة وتدقيقها فى الحسابات المالية واثبات كل ذلك في سجلات رسمية حتى ولو كانت المبالغ تافهة لا قيمة لها . فليس من المسلم به ان تهمل هذه السلطات تسجيل مصادر دخل الخزينة ونفقاتها ، ومن المنطقى والحالة هذه ، ان تتوفر الخزينة على سجلات رسمية ، والدليل على صحة هذا الاستنتاج ان احد هذه السجلات وجد بالفعل وقام بنشره السيد دوفو (Devoulx) تحت عنوان « الغنائم البحرية » (51) . كما ان السيد بيشون (Pichon) مستشار الدولة والمقتصد المدنى للجزائر بعد الاحتلال أشار فى كتابه عن الجزائر الذى ذكره السيد فلاندان (Flandin) (52) ، الى وجود مدونة (Nomenclature) ضخمة لسجلات المحاسبات المالية للايالة الجزائرية مودعة فى وثائق أملاك الدولة ، تتضمن دفتر المصاريف العامة للايالة الجزائرية ، رغم اشارته الى فقدان سجلات وحسابات الخزينة (53) ، بالاضافة الى الدفاتر الرسمية التى تضمها محفوظات دار ولاية الجزائر اليوم (54) .

فبعد اخذ هذه الاحترازات والشكوك بعين الاعتبار لم يبق لنا الا اجراء احصاء تقريبى غير مسلم به لثورات الخزينة اساسه معلومات الرحالة ورجال الجيش الفرنسى .

واول هذه التقديرات نستنتجه من حمولة البغال التى استعملت فى نقل ثروات الخزينة من قصر الجنينة الى حصون القصبة سنة 1817 ، باعتبار ان كل حمولة تزن ثلاثة قناطير وبذلك تكون القيمة :

76 حمولة ذهبا	= 34.492.469
و 140 حمولة فضة	= 30.544.000
وثمن الجواهر والحلى والاشياء الثمينة	= 3.500.000
فيكون المجموع حسب هذا التقدير (55)	= 68.536.469

(49) Esquer, *op.cit.*, p. 362.

(50) Denniée, *op.cit.*, p. 51.

(51) Devoulx, « Le registre des prises » ... *op.cit.*

(52) Flandin, *op.cit.*, p. 21.

(53) نفس المصدر .

(54) أهم الدفاتر التى تتعرض لحسابات الدولة المالية بمحفوظات دار ولاية الجزائر هى : دفاتر 3 : ضرائب الدولة على اليهود ، ضرائب اودعت خزينة الدولة . دفتر 4 : واردات وصادرات البلاد . دفتر 10 : المصاريف السنوية لحفظ القلاع الاربع ، ضرائب يدفعها شيوخ البلد ، مصاريف عامة للدولة . دفتر 11 : الضرائب . دفتر 12 : ضرائب يدفعها القبائل . دفتر 67 : مصاريف الدولة على مختلف شؤونها . دفتر 68 : مرتبات بعض الموظفين عند الدولة الجزائرية . دفتر 385 : تقاييد وحسابات تتعلق بمصاريف المياه والعيون والسواقى. دفتر 387 : تقاييد تتعلق بمصاريف الاوقاف ورواتب بعض الموظفين. هناك قائمة تامة لهذه الدفاتر فى المراجع الملحقة بالرسالة .

(55) J.T. Merle, *Anecdotes historiques et politiques pour servir à l'histoire de la conquête d'Alger en 1830*, Paris, 1831, p. 291-292.

ومما يؤخذ على هذا الاحصاء المتصف بالغموض والبعد عن الدقة أن حمولة البغال لا يمكن تحديدها بثلاثة قناطير دون زيادة أو نقصان ، كما لا يمكن الجزم بصحة عدد هذه الحمولات ، فضلا عن ان ملايين الفرنكات التى قومت بها الخزينة سنة 1817 ، اعتمد فيها على السعر المعمول به سنة 1830 ، دون أن تأخذ بعين الاعتبار التغيرات التى طرأت على أسواق الذهب والفضة مدة لا تقل عن ثلاث عشرة سنة .

أما بقية التقديرات الاجمالية الاخرى للخزينة فهى تخضع لاعتبارات سياسية واقتصادية ، ولهذا جاءت متفاوتة يلمس فيها شىء من المبالغة المغرضة ، ويلاحظ فيها تعمد مقصود للحط من قيمة ثروات الخزينة . والمرجح ان هذه المبالغة مردها رغبة قناصل الدول الاوروبية فى حث دولهم على الاسراع فى وضع يدها على الخزينة ، كما أن مصدر الحط من شأن الخزينة قد يرجع الى اخفاء حقيقة ربما تكون ضد مصلحة بعض رجالات الجيش الفرنسى المتسببين فى اختفاء بعض الاموال والثروات .

فمن التقديرات التى فيها شىء من المبالغة ما كتبه شاو (Shaw) (56) ، من أن ثروات الخزينة تبلغ أربعين مليونا من القروش أى ما يساوى مائتى مليون فرنك ذهبا (57) . وكذلك مذكرة غوراى (Guerey) المؤرخة سنة 1791 (58) ، فهى تقدر الخزينة بأكثر من مائة مليون تورنوا (59) .

ومن هذه التقديرات أيضا ما أورده شالير (Shaler) قنصل الولايات المتحدة الامريكية بالجزائر من أن مجموع الخزينة يساوى مائة وثلاثين مليونا من القروش القوية المعروفة بالدولار الاسبانى ، أى ما يعادل مائة وستين مليونا من الفرنكات الذهبية (60) . وقد جارى شالير فى تقديراته هذه كل من قنصل فرنسا دوفال (Deval) عندما قدم مذكرة للحكومة الفرنسية سنة 1828 (61) ، وكليرمون طونير (Clermont Tonnère) وزير الحربية الفرنسى الذى أثبت فى تقريره للملك عن الحالة فى الجزائر سنة 1827 ما يقارب ذلك أى مائة وخمسين مليونا من الفرنكات (62) .

واذا رجعنا الى الاحصاءات التى تتصف بالتقليل من أهمية الخزينة فاننا نجدها صادرة فى أغلبها عن رجال كان سلوكهم مبعث الاقاويل كما أشرنا الى ذلك ، وكان مصير الخزينة بين أيديهم بعد الاحتلال مباشرة ، ومن أبرز هؤلاء المسؤولين بلا شك هم أعضاء اللجنة التى كونها قائد الحملة الفرنسية (63) .

---

(56) مما ينقص من قيمة هذه المعلومات انها تعود الى فترة متقدمة ، لان السيد شاو مكث فى الجزائر بين سنتى 1720 و 1732 ، وان كانت هناك تعديلات ادخلها على كتابه السيد مكارتى (Mac-Carthy) عندما قام بترجمته الى الفرنسية سنة 1830 .

(57) Shaw, *op.cit.*, p. 210.

(58) Klein, *op.cit.*, p. 90.

(59) نوع من العملة الاجنبية كان استعمالها شائعا فى الجزائر فى القرن الثامن عشر وهى احدى عملات المدن الايطالية التى يستعملها الاسبان فى تعاملهم .

(60) Flandin, *op.cit.*, p. 7.

(61) نفس المصدر .

(62) A.M.G., H. N° 1000 fonds d'Algérie, rapport au roi sur Alger, Paris, 14 octobre 1827.

(63) حسب المعلومات الواردة فى ملف السيد دوبورمون قائد الحملة ، أن اللجنة الخاصة المكلفة بأمن الخزينة افادت بان أرباح الخزينة تقدر باكثر من 80 مليونا من الفرنكات ، رغم ما ورد بعد ذلك فى تقرير نفس اللجنة الرسمى بان أموال الخزينة لا تتعدى 50 مليونا ، راجع : A.M.G. H, 235, Papiers De Bourmont.

مثل فيرينو (Firino) الامين العـام للصندوق ودونيي (Denniée) المقتصـد العام ، والجنرال طولـوزى (Tholosé) الذين حددوا أموال الخزينـة بمقـدار الكميات التى تم ارسالها الى فرنسا عن طريق البواخر، وهى 48 684 527،94 فرنكا (64) ، وهذا ما يتعارض مع معلومات الملازم الاول فلانـدان (Flandin) القائلة بان الخزينة لا تتعدى أربعة عشر مليونا من الفرنكات (65)، والمستنبطة من القياس الجيومترى الذى أجراه غاى (Guey) بطريقة طرح الفراغات المحتملة من حجم الخزينة الكلى المقـدر بالامتار المكعبة (66) . ومما يـلاحظ أن تقـدير اللجنة الخاصة (48.684.527،94 ف) اعتمد عليه أغلب كتاب الفترة الاولى من الاحتلال دون أن يكلفوا أنفسهم عناء المنـاقشة والتمحيص ، واظهروه فى شكل عملية حسابية دقيقة ناتجة عن جمع قيمـة الذهب الى قيمة الفضـة ، وبذلك سلموا بأن مجموع ثروات الخزينـة 48.684.527 (67) . ومن هـؤلاء الكتاب الذين أثبتوا هذه الارقـام نذكر : كارات (Carette) (68) ، وجـانتى دوبوسى (Genty de Bussy) (69) وفياس (Fillias) (70) ، وروا (Roy) (71) وهاتان (Hatin) (72)، وغارو (Garrot) (73) ، ودوبربون (De Bourbon) (74).

وهكـذا تضيع قيمة الخزينـة بين هـذه الاحتمالات المتضاربة والارقـام المتفاوتة التى تتراوح بين مائتى مليون وأربعة عشر مليون فرنـك . وتكـاد تنحصر أغلبيتها فى مائة وستين مليونا وخمسين مليونا من الفرنكات .

فكل ما نستفيده من هذه التقديرات هو اعطـاء فكرة مجملة عن خزينة الايالة الجزائرية مدة ثلاثين سنة قبل الاحتلال ، عندما كـانت تضم ثـروات ضخمة من الاموال والمقتنيات الثمينه (75) ، قد لا تقل عن مائة مليون فرنك عملا بترجيح أكثر الاحتمالات شيوعا (76) ، رغم أن التقدير الدقيق والمسلم به شىء صعب المنال لظروف تلك الفترة الغامضة ولضياع الوثائق الرسمية وانعدام الشواهد المادية .

(64) Denniée, *op.cit.*, p. 53.

(65) رغم ان احد الضباط قدر الخزينة الصغرى فقط بأربعة عشر مليونا ، راجع *Un officier de l'armée d'Afrique, quelques mots sur le trésor d'Alger,* Paris, 1830, p. 5-6.

(66) Flandin, *op.cit.*, p. 7.

(67) A.M.G., Rapport de la commission.

(68) Carrette, Algérie, p. 225.

(69) G. de Bussy, p. 448.

(70) Fillias A, *Histoire de la conquête et de la colonisation de l'Algérie 1830/1860,* A. de Vresse, Paris, 1860, p. 85.

(71) Roy, *op.cit.*, p. 185.

(72) Hatin E., *Histoire pittoresque de l'Algérie,* Imp. Guiraudet, Paris, 1840, p. 187.

(73) Garrot, *op.cit.*, p. 681.

(74) De Bourbon, T. II, p. 176.

(75) H. Khodja, *op.cit.*, p. 113.

(76) وهذا ما تؤكـده الوثيقـة المرسلة للحكومة الفرنسية سنـة 1803 التى ورد ذكرهـا فى كتاب نظرة تاريخية واحصائية وطوبوغرافية على دولة الجزائر :

Picquet, *Aperçu Historique,* Statistique et Topographique.

الذى سبق ذكره ، رغم ان السيد (Esquer) ، يستنتج أن الخزينة من المرجع تقييمها بخمسة وخمسين مليون فرنك ، كما ان السيد اميرى يعتبر رقم 150 مليون فرنـك هو اكثر الاحتمالات تواردا ، راجع :

— Esquer, *op.cit.*, p. 364.

— Emerit, *op.cit.*, « Une cause », p. 181.

ولعل من المفيد أن نلخص هذه التقديرات والارقام التى تتعرض لثروات وأموال الخزينة فى الجدول التالي :

ميـرل (Merle)	68.537.269 ف	رغم انه غير معاصر الا ان تقديره يعود الى سنة 1817
شاليـر (Shaler) دوفـال (Duval)	130.000.000 ق مستعمل اى 160.000.000 فرنك ذهبى	يعود هذا التقدير لثروات الخزينة الى سنة 1822
كليمون طونير (De Bourmont)	تقارب 150.000.000 ف	
دوبرمون	أكثر من 80.000.000 ف	بالاضافة الى الغنائـم الاخرى تبلغ اربـاح الحملة الفرنسية اكثر من 100 مليون فرنك
وثائق سويديـة	حوالى 40.000.000 ق اسبانى مستعمل	
لابى أورس (L'Abbé Orse)	تقارب 50.000.000 ف	
فـلاندان (Flandin)	لا تتعدى 14.000.000 ف	
اللجنة الخاصة لمراقبة ثروات الخزينة	48.684.527،94 ف	
القبطان ماتيرى (77) (Matterer)	43.396.598 ف	بدون تقييم الودائع والسبائك

(77) Matterer, The *Journal de la prise d'Alger par le Capitaine de frégate Matterer 1830*, Ed. de Paris, 1860, p. 134.

ونستنتج من التقديرات الواردة فى الجدول السابق أن الخزينة كانت تحتوى على ثروات من الاموال والودائع لا يمكن التقليل من أهميتها وتأثيرها على الحياة الاقتصادية والمالية والادارية للبلاد .

كما ان هذه الثروات لا يمكن ان تبلغ هذا الحد من الضخامة الا بفضل اتباع سياسة مالية تتصف بالاقتصاد فى النفقات والتقليل من المصروفات وتطبيق نظام دقيق فى المحاسبات المالية .

فهذا الأسلوب المتبع فى السياسة المالية كان الدرع الواقى لثروات الخزينة من الايدى العابثة أثناء تمردات الجند واضطراب نظام الحكم واشتداد غارات الاساطيل الاجنبية . وقد ساعد على هذه السياسة المالية التقشفية تلك المجاعات والأوبئة (78) ، وذلك الركود الاقتصادى الذى عاشته الجزائر فى أوائل القرن التاسع عشر مما جعل المحافظة على أموال الخزينة شيئا ضروريا لبقاء كيان الايالة الجزائرية ، وأدى الى عدم الانتباه لفوائد توظيف أموال الدولة فى المشاريع الانتاجية والخدمات الاجتماعية والاقتصاديه التى تخدم مصالح الدولة ورعاياها (79) ، وتكون منطلقا لخلق نهضة اقتصاديه ربما تكون مماثلة لما كان يجرى آنذاك على يد محمد على بمصر ، أو فى الضفة المقابلة للبحر المتوسط بأوروبا الغربية .

وفضلا عن هذا فان جدول ثروات الخزينة يؤكد لنا بأن مصادر الدخل تغطى وجوه الانفاق فميزان العمليات المالية من مصاريف ومداخيل تكون والحالة هذه فى صالح خزينة الدولة ، ولهذا السبب ناخذ بعين الاعتبار التقديرات القائلة بأن مداخيل الدولة أكثر من نفقاتها مثل تقدير شاو ، الذى ذهب فيه الى أن هناك فائضا فى مداخيل الدولة يناهز 1.700.000 فرنك (80) ولنفس السبب نستبعد واقعية التقارير التى تسجل عجزا مزمنا تعانيه خزينة الدولة الجزائرية ، والتى أوردها شالير ، وبعض الكتاب الذين اعتمدوا عليه مثل ديسترى (D'Estry) ومحريرى : « النشرة الاعلامية » التى وزعت على الجيش الفرنسى عشية الاحتلال (81) .

فشالير أورد أن ميزان الصادرات والواردات كان يسجل عجزا سنويا يبلغ 937.000 دولار اسبانى (82) ، مما يضطر الخزينة حسب قوله الى سد

---

(78) تعرضت الجزائر فى السنوات التى سبقت الاحتلال الى القحط والمجاعات ، على سبيل المثال : القحط الكبير سنة 1800 ، ومجاعة سنة 1809 ، وطاعون سنتى 1817 و 1819 . راجع :

— H. Khodja, *op.cit.*, p. 143.
— Guyon, M.A. nº 106.
— Marchika, *op.cit.*, p. 178.

— انظر عوامل التأثير فى السياسة المالية : الاحوال الصحية والاقتصادية ، الفصل الاول من الرسالة .

(79) انظر : نفقات المرافق العامة فى فصل : وجوه الانفاق .

(80) باعتبار ان المداخيل 4.000.000 ف والمصاريف 2.300.000 ف فالفائض اذا 1.700.000 حسب تقدير ريباندير (Rebinder) راجع :

Shaw, p. 209.

(81) D'Estry, *op.cit.*, p. 142-143.
Aperçu Historique Statistique, *op.cit.*, p. 161-163.

(82) باعتبار أن الواردات سنة 1822 بلغت 1.200.000 دولار اسبانى ، والصادرات لم تتجاوز 273.000 دولار ، وبالتالى بلغ العجز المالى فى الميزان التجارى 937.000 دولار سنويا ، راجع :
Shaler, *op.cit.*, p. 104.

نفقاتها الباهظة باخراج 500.000 دولار اسبانى كل سنة من الاموال المودعة فيها (83) . وهذا ما لا نسلم به لأنه ليس من المعقول أن تتوفر الخزينة على كميات مالية ضخمة وقع جزء كبير منها فى أيدى الجيش الفرنسى ، فى وقت يعانى فيه الميزان التجارى عجزا مزمنا ، وتتضاءل فيه مصادر الدخل بجانب وجوه الانفاق ، وان كنا لا ننفى بعض الروايات والتقارير ، التي تفيد بأن السنوات التى سبقت الاحتلال الفرنسي مباشرة قد تميزت بازمة اقتصادية انعكست آثارها السلبية على الخزينة ، الا أنها لم تبلغ حد العجز والانهيار ، بل كانت هذه الازمة انعكاسا طبيعيا للأوضاع التى كانت تعيشها الايالة آنذاك .

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من الكلام عن خزينة الجزائر أن نسجل بأن هذه الثروات التى دار حولها الجدل والنقاش كانت دافعا ومحركا لأطماع ودسائس الدول الاوروبية المتأثرة بالتقارير المغرضة لقناصلها مما جعلها تؤثر بدورها ولو بصفة غير مباشرة فى تقرير مصير الايالة الجزائرية . وربما كان ذلك هو الذى دفع السيد اميرى (Emerit) الى اجراء دراسة ربط فيها قضية الخزينة بالاحتلال الفرنسي (84) ، مما يضع الخزينة فى مكانها اللائق بها ضمن اطار النظام المالى للايالة ، فهى العصب الحساس لهذا الجهاز وهى المؤثر المباشر على سياسة الحكام فيما يتخذونه من قرارات تخص الحياة المالية والاقتصادية ، كما أنها تمثل رمز السياسة المركزية المالية للايالة الجزائرية قبل الاحتلال .

ناصر الدين سعيدونى
كلية الآداب ـ جامعة الجزائر

(83) Ibid., p. 106.
(84) Emerit, « Une cause ...*op.cit.*, », p. 171-188.

أضواء تاريخية على بحيرة تونس

عبد العزيز الدولاتلي

من خاصيات موقع مدينة تونس انها تمتد بين بحيرتين : السبخة من الجهة الغربية والبحيرة من الجهة الشرقية . ويرى بعض المؤرخين أنه بفضل هذا الموقع سميت منذ القديم « تونس » اذ يبدو حسب نفس الكاتب أن كلمة تونس تعني « ما هو بين قطعتى ماء » اذ نجد تسميات قديمة مشابهة استعملت لمدن مثل « تونيزا » (Tuniza) بالجزائر و « تناس » (Ténès) وهى كذلك مدن تحيط بها المياه من جهتين (1) .

فالبحيرة والسبخة تكونان حاجزين طبيعيين تعززهما سلسلة المرتفعات والهضاب المحيطة بالمدينة كمرتفعات الجلاز (الاسم القديم جبل التوبة) والجبل الاحمر (الاسم القديم جبل ابى خفاجة) وهضبة القصبة والسيدة المنوبية (الاسم القديم جبل الصيادة) والبلفيدار وراس الطابية .

الا أنه لا يستبعد أن كل هذه الحواجز كانت سببا من أسباب تعطل نمو البلدة العتيقة وتقلص عمرانها فى العهد البونيقى والرومانى بينما كانت مدينة رادس (Radès) تلعب دورا رئيسيا كحارس للمنفذ الطبيعى الذى يصل البحر بالبحيرة (2) .

ومهما يكن من أمر فالبحيرة وكل الحواجز الطبيعية الأخرى التى يبدو أنها عرقلت سابقا تطور البلدة ، قد أصبحت تشكل عنصرا هاما لاختيار تونس من طرف الغزاة العرب وجعلها مركز دفاع حصين ضد القوات البيزنطية ومنطلقا لهجوماتهم على حصون تلك القوات خاصة ما كان مستقرا بجزيرتى ساردانيا وصقلية . فالظروف السياسية والحربية قد تغيرت فى البحر الابيض المتوسط منذ انتصاب العرب بالشام ومصر وافريقية لا سيما بعد أن سقطت قرطاج بين أيديهم ، فكان لا بد من اختيار موقع منيع بعيد عن الشواطىء البحرية بحيث يصعب على الاسطول البيزنطى النيل منه ، وفى الحين نفسه يكون قريبا من تلك الشواطىء حتى يصير منطلقا للاسطول العربى فى غزواته لجزر العدو . فلم يجدوا مكانا أليق من موقع تونس المطلة على البحر والمحمية من أخطاره بالبحيرة ـ فلا قرطاج ولا رادس كفيلتان بأن تقوما بهذا الدور الاستراتيجى الخطير (3) .

وهكذا بنى حسان بن النعمان ميناء تونس ودار الصناعة وحفر القناة لكى يصل البحيرة بالبحر وأعد مرسى حلق الوادى ـ ولكن ما هى الحقيقة عن هاته الانجازات ؟ .

الحقيقة عن القناة وميناء حلق الوادى :

يشكل موضوع الاشغال التى قام بها حسان بن النعمان فى تونس بأمر من الخليفة عبد الملك بن مروان أصعب المشاكل اذ هو من المواضيع التى

(1) C. Noël, « Thunes, Thimida, Tuniza » in, *Revue Tunisienne*, 1921, p. 130.

(2) بعد الفتح الاسلامى ، لم تحتفظ رادس باهميتها الاستراتيجية الا فترة قصيرة ، خلافا لتونس التى تمتعت بموقع حصين جدا .

(3) راجع رسالتنا الجامعية ، الفصل الاول منها (تحت الطبع) :

تتشعب فيها الحقيقة مع الخيال وتتضارب فيها الافتراضات والتخمينات وذلك بسبب الغموض الذى ساد كل الروايات التى وصلتنا بفضل جمع من المؤرخين كالبكرى (4) والادريسى (5) والتجانى (6) الذين لم يذكروا بوضوح صفة هذه القناة ولا حجمها ولا حتى مسلكها (7) .

فحسب ما يرويه البكرى كان حسان قد جلب الماء من البحر الى البحيرة فاوصله الى تونس (8) ويزعم التجانى من جهته مستندا الى نفس الكاتب وغيره أن لا وجود للبحيرة قبل مجىء العرب لافريقية فيقول : « كان موضع البحيرة اليوم على ما ورد فى التاريخ مزارع وبساتين فحفره (حسان بن النعمان) حفرا وفرقه الى أن وصل الى دار صناعتها وأنشأ فيها مراكب كان يغير فيها الى ساحل الروم فشغلهم بأنفسهم عن الاغارة عن افريقية » . ثم يعقب عن ذلك قائلا : « ذكر المؤرخون هذا الخبر وفيه بينهم اختلاف » . (9)

ولكن وجود البحيرة قبل مجىء العرب يعتبر من الحقائق التاريخية التى لا اختلاف فيها فى يومنا هذا ، اذ أن الكثير من المؤرخين القدامى كابيان وبوليب وبروكوب (10) يصرون على وجودها ، والمعلوم أن البحيرة كانت حينذاك متصلة بالبحر بواسطة قناة طبيعية تقع جنوب حلق الوادى من جهة رادس . والجدير بالذكر أن تسمية رادس اصلها اللاتينى هو « بير راتس » (Per-rates) اى « بواسطة الطوف » (البطاح حاليا) الذى يركب لاختراق القناة .

تلك هى على ما يبدو الحقيقة عن البحيرة والقناة التى تصلها بالبحر قبل مجيىء العرب . فما هى الاشغال التى قام بها العرب فى اوائل فتحهم لافريقية ؟

يحتمل أن يكون المنفذ الطبيعى العتيق قد أصبح فى ذلك الزمان أى فى أواخر القرن الاول غير صالح لمرور القوارب أو السفن بحيث وجد العرب أنفسهم مضطرين الى فتح مدخل جديد فى الضفة الشمالية مما جعل البكرى وغيره يزعمون أن حسانا قد جلب الماء من البحر الى تونس وحفر البحيرة . والواقع أنه لم يحفر البحيرة بل شق قناة صغيرة فى قطعة الارض الممتدة من شاطىء رادس الى شاطىء حلق الوادى . هذا ما يفترضه بعض الكتاب المعاصرين الذى يرى أن ميناء حلق الوادى القديم والقناة هما فى الحقيقة شىء واحد وهو ما يسميه الاخصائيون Canal-Port أى « قناة ـ ميناء » ويضيف نفس الكاتب قائلا : « وبما أن كلمة حلق الوادى (أو فم الوادى فى بعض النصوص القديمة) التى تطلق على ذلك المركب ، هى كلمة عربية فطبيعى أن يرجع تاريخ تأسيسه الى العرب » (11)

(4) *Tunis sous les Hafsides, évolution urbaine et activité architecturale*, chapitre 1. Al-Bakri, *Description de l'Afrique Septentrionale*, trad. de Slane, p. 90 et ss, 1859.

(5) Idrissi, *Description de l'Afrique Septentrionale*, p. 81, Alger, 1957.

(6) أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجانى ، **رحلة التجانى** ، تقديم حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ، 1958 ، ص 7 و 353 و 355.

(7) Auguste Henri, « Site du Port de la Goulette », in, *Revue Tunisienne*, 1894, pp. 61-258.

(8) البكرى ، **نفس المصدر** ، ص 38 ـ 39 .

(9) التجانى ، **نفس المصدر** ، ص 7 .

(10) Paul Sebag, « Le canal entre le port et la mer », in, *I.B.L.A.*, 1970.

(11) **المصدر نفسه** ، انظر **تاريخ حلق الوادى** فى :
M. Gandolphe, « La Goulette avant l'occupation française », in *Revue Tunisienne*, 1913, pp. 200-211.

ويذكر التجاني أنه في سنة 596 هجرية ، لما أراد الشيخ أبو سعيد حصار تونس في أيام أبي زيد ابن أبي حفص بن عبد المؤمن « ضرب أخبيته وخيامه **عند مدخل البحيرة وهو المكان المعروف بحلق الوادي** . وأمر أبو زيد عند ذلك بتسيير القطع في البحر وخروج العسكر في البر » . ويروي نفس الكاتب أنه لما حاصر الميورقي ابن غانية مدينة تونس في شهر ربيع الآخر سنة 600 هـ/ديسمبر 1206 م « نزل بالجبل الأحمر جهة جوفها وأقام هناك أياما ثم انتقل منه فنزل بين بابي السويقة وقرطاجنة ونزل أخوه الغازي بن اسحاق على **الموضع المعروف بحلق الوادي حيث يصب البحر في البحيرة ، فردمه ردما حتى صار أرضا يبسا وقطع تصرف القوارب الداخلة اليه والخارجة منه وترك عليه من يحرسه** » .

تبرز من خلال هذين النصين قيمة حلق الوادي الدفاعية بفضل موقعها في مدخل البحيرة واتصالها المتين بتحصينات المدينة . هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فان الانجاز الذي حققه العرب بعد فتحهم لقرطاج يزداد وضوحا ويبتعد شيئا ما عن التصورات الخيالية المبهمة التي ورثناها عن القدامى من المؤرخين والجغرافيين الذين بالغوا في تعظيم أشغال حسان بن النعمان الى حد زعمهم بأنه حفر البحيرة في مكان كانت تغطيه الأعشاب وأنواع الغلال والثمار وتكثر فيه الآبار .

بعد أن ردمت القناة في أيام الميورقي ابن غانية أعاد الحفصيون حفرها (12) . وكانت تونس في عهدهم قاعدة تجارية عظيمة تلعب دورا هاما في المبادلات مع الجمهوريات والامارات الايطالية والفرنسية والاسبانية مثل بيزا والبندقية وجنوة ومرسيليا ... وكانت القوارب تخرق حلق الوادي ثم البحيرة وأخيرا ترسى بميناء تونس ولكن يبدو أن ما سماه العرب « بالوادي» ليس ما نتصوره ، أي تلك القناة المستقيمة والمتسعة بل كان مسلكا ضيقا وملتويا لا تعبره الا القوارب الصغيرة الحجم .

ومع ذلك فان الجغرافي الادريسي يذكر أن في أيامه (أي القرن الخامس الهجري) تبلغ « سعة هذا النهر المحفور نحو 40 ذراعا (عشرون مترا تقريبا) وعمقه من 4 الى 3 قيم (من ستة الى أربعة امتار تقريبا) وقعره طين . وطول هذا الحفير المسمى نهرا 4 أميال (ما يقرب عن 5ر800 كلم) . ويعتقد الادريسي مثل غيره من الجغرافيين القدامى أن العرب قد حفروا البحيرة ، فيصف الأعمال التي قاموا بها بعد حفر النهر قائلا : « ثم أجروا (العرب) ماء البحر في ذلك النهر فعلا على الحفر حتى جاوز أعلاه بربع قائمة أو أقل أو أكثر الى أن بلغ الماء حده فوقف . وعند آخر هذا الحفر يتسع فيه الماء ويعمق، واسمه وقور (حلق الوادي) . واليه تصل المراكب الحمالة والشوافي والحرابي وترسى هناك واتصل فيض الماء الطافي في هذا النهر المحفور الى مدينة تونس فهي على نحو البحيرة وأوساق المراكب تفرغ بوقور **في زوارق صغار تعوم في أقاصير الماء الى مدينة تونس ودخول المراكب من البحر الى النهر حتى تصل الى وقور واحد بعد الواحد لأن سعة النهر لا يحتمل أكثر من ذلك** » (13)

وينقل أبو الفداء عن ابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري) أن ميناء تونس لا تدخله الا القوارب الصغيرة (14) وهو في ذلك لا يخالف

(12) التجاني ، **نفس المصدر** ، ص 355 .
(13) الادريسي ، **نفس المصدر** ، ص 81 .
(14) ابو الفداء ، **تقويم البلدان** ، ص 38 .

الادريسى الا أننا نعجب من الأرقام التى أتى بها هذا الأخير حول اتساع وطول وعمق القناة . فهاته الأرقام نحو ستة كيلومترات وعشرين مترا عرضا وأربعة الى ستة أمتار عمقا لا تكون الا مبالغا فيها ، الا اذا افترضنا أن الوضع قد تغير طيلة الاربعة قرون وأكثر التى تفصل بين فتح القناة ومجىء الادريسى الى تونس ، فتكون معطياته المرقمة قديمة قد تعدتها الأحداث فى حين كان وصفه للقناة بقى مطابقا لما شاهده وعاينه بنفسه فنتساءل ، هل ان هذا « النهر المحفور » العظيم قد أهمل وغفل الناس عن الحفاظ عليه وصيانته فلم يعد صالحا الا لصغار المراكب أم أنه لم يرسم الا فى خيال عامة الناس وخاصتهم ؟

والجدير بالذكر أن أسطول عبد المؤمن المتركب من سبعين سفينة لم يرس بحلق الوادى بل بقى عرض البحر أمام قرطاج حيث أنزلت جنوده وقام بنفس العملية جيش الصليبيين حين جاء الى تونس وعلى رأسه الملك الفرنسى لويس التاسع . وبينما أمكن لعبد المؤمن اخضاع المدينة وفتحها بفضل التحام جيوشه البرية والبحرية ، بقى لويس التاسع بقرطاج وضواحيها يترقب الفرصة المناسبة التى لم تتوفر له . ولا شك أن ردم حلق الوادى فى أيام أبى زيد الموحدى سنة 600 هجرية قد زاد الطين بلة وتعفنت القناة أكثر مما مضى.

أما بعد احتلال الاسبان لمدينة تونس وحلق الوادى واسترجاعهما من طرف الأتراك العثمانيين ، فان أول عمل قام به سنان باشا هو ردم حلق الوادى الذى لم تعد اليه وظيفته الا فى أوائل القرن الحادى عشر هجرى . وفى أواخر نفس القرن ألغى مرة أخرى ثم فتح من جديد فى بداية العهد الحسينى . وفى أواخر القرن الثامن عشر فكر الباى فى حفر قناة جديدة مواكبة لمتطلبات العصر ولكنه لم يقدر على تنفيذ رغبته نظرا للتكاليف المالية الباهضة والصعوبات الجمة التى وجدها المهندسون الهولنديون الذين كلفوا بدراسة المشروع (15) .

جزيرة شكلى وضفاف البحيرة ـ مشكل تعفن مياه البحيرة :

من أدق ما كتب عن البحيرة وضفافها الفقرات التى وردت فى كتاب أبى عبيد الله البكرى فى أواسط القرن الخامس الهجرى حيث يقول : « بشرقى مدينة تونس بحيرة كبيرة دورها أربعة وعشرون ميلا فى وسطها جزيرة تسمى شكلة طولها ميلان تنبت الكلخ ، وبها آثار قصر خرب ، فصارت دار صناعة تونس متصلة بالميناء ، والميناء متصل بالبحيرة والبحيرة متصلة بالبحر، وعلى شاطىء الميناء مسجد يعرف بمسجد عبد الله، وبقبلى الميناء قصر مبنى بالحجارة متقن البناء ، وفى الجوف منه صخر كالسور فصار المدخل بالسفن فى هذا الميناء بين حائط القصر وهذا السور ، وتعرض بينهما سلسلة حديد تمنع المراكب من الدخول والخروج ما دامت متعرضة ، وهذا القصر يعرف بقصر السلسلة . وبقبلى القصر صهريجان كان ملوك بنى الأغلب يرسلون فيهما ماء البحر ويملؤونهما بالسمك » (16) .

يبدو من خلال هذا الوصف أن مياه البحيرة لم تتكدر ولم تفسد الا فى عصور متأخرة ولا نجد أى ذكر للروائح الكريهة التى نعرفها فى يومنا هذا طيلة فصل الصيف حيث يشتد الحر . على أننا لا نجد أحدا من الرواة بعد

---

(15) A. Pellegrin, *Histoire illustrée de Tunis et de sa banlieue*, p. 56, Tunis, 1955.

(16) البكرى ، **نفس المصدر** ، ص 39 .

البكري والادريسي في عهد بني حفص كالمغربي ابن سعيد والعبدري وعبد الباسط ابن خليل (17)، من اشتم روائح كريهة اشمأزت منها نفسه فذكرها، بل نرى العمري ينوه بجمال البحيرة التي كانت تحفها الأجنة ومساكن الاثرياء. وهو الوحيد الذي روى أن السلطان الحفصي كان ينتقل في فصل الربيع مع حاشيته الى جزيرة شكلي فينصب فيها الخيام ويقضي بها بضعة أيام للراحة والنزهة والمتعة بالمناظر الجميلة التي تتراءى له على ضفاف البحيرة (18).

وكذلك ابن سعيد الأندلسي، فانه يأتي على منوال العمري فيصف جزيرة شكلي بأنها مكان راحة واستجمام ولكنه يضيف أن بعض القاذورات تتجمع على ضفة البحيرة المجاورة للمدينة (19) وهذه أول اشارة من هذا القبيل يدلي بها مؤرخ قديم. على أننا واثقون من وجود قنوات تتجمع فيها مياه المدينة القذرة فتصب في البحيرة بواسطة خنادق (20) منها الخندق الذي أشار اليه التجاني في أوائل القرن السابع بالقرب من باب الجزيرة (21).

فيمكن الجزم أن تعفن البحيرة هو حادث يرجع الى عهد ليس ببعيد جدا، السبب فيه تعدد سكان مدينة تونس أيام بني حفص واتساع عمرانها الذي تجاوز حدود المدينة القديمة وشمل أرباضا فسيحة تمتد غربا وشمالا وجنوبا (22).

وأول من تحدث عن البحيرة من الغربيين ووصف ضفافها وموانيها وتحصيناتها الدفاعية وقنالها هو البلجيكي آنسالم آدورن (Anselme Adorne) (23) وهو من مدينة بروج (Bruges)، مر بتونس في طريقه الى البلاد المقدسة ومكث بها ثلاثة أسابيع بداية من يوم 27 ماي 1470 أي في أوائل فصل الصيف حيث تكون درجة الحرارة في تزايد مستمر والبحيرة تشتد تعفنا، فلم يغفل عن التلميح للروائح الكريهة التي غفل عن ذكرها أو تغافل عنها غيره من الرحالة العرب.

ثم يأتي على منواله جوس فان شيستال (Joos Van Chistele) (24) الذي عرف مدينة تونس خلال رحلة كبيرة دامت منذ يوم 14 نوفمبر 1481 الى يوم 24 جوان 1485 فتكلم عن البحيرة بشيء من الاعجاب ولكنه أظهر أسفا شديدا للروائح التي تتصاعد منها في فصل الصيف فتعكر الهواء وتضايق الأنفس.

وبقيت البحيرة طيلة القرنين الأخيرين وصمة في جبين المدينة العتيقة الفائقة الجمال والبهاء وهدفا للنقاد خاصة من طرف الزوار الأجانب الذين توارد وا على تونس واستقروا بها الأيام والأسابيع وحتى السنوات العديدة

---

(17) R. Brunschvig, *Deux Récits de voyage inédits en Afrique du Nord, Abdelbāsit Ibn Ḥalīl et Adorne*, Paris, 1936.

(18) ابي فضل الله العمري، **مسالك الابصار في ممالك الامصار**، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس بدون تاريخ، ترجم قسم من الكتاب من طرف قود فروا ديمنبين (Gaudefroy-Demombynes) ص 109، باريس، 1927.

(19) عن أبي الفداء، **نفس المصدر**، ص 123.

(20) R. Brunschvig, *La Berbérie Orientale sous la dynastie des Hafsides*, Paris, 1936.

(21) التجاني، **نفس المصدر**، ص 355.

(22) فيما يخص تطور العمران في تونس راجع رسالتنا الجامعية المنصوص عليها سابقا.

(23) R. Brunschvig, *Deux récits de voyages inédits op.cit.*, p. 158 et ss

(24) J. Bauwens et L. Verplancke, « Voyage de Joos Van Christele », In *IBLA*, 1967, p. 161.

سيما اثر ظهور الدولة الحسينية وتفتح الايالة على أوروبا وتوطيد العلاقات السياسية والتجارية معها ، فأصبح موضوع تعفن البحيرة متداولا فى جل الأحاديث والتقارير ومذكرات السفر . فنجد مثلا الدكتور فرانك (Dr. Louis Frank) (25) الذى أتى الى تونس مرتين مرة فى سنة 1802 وأخرى فى سنة 1806 ثم صار الطبيب الخاص للباى يتعجب من كون الاوروبيين القاطنين بتونس تعودوا بتلك الروائح حتى أصبحوا وكأنهم لا يشعرون بها . أما الانجليزى جرانفيل تامبل (Grenville Temple) (26) الذى عرف المدينة حوالى 1832 ـ 33 فيذكر أن تلوث الهواء لا يكون خطرا عظيما على صحة السكان اذ أن الكميات الكبيرة من الزعطر والكليل والسدر وغيرها من الأعشاب البرية ذات الروائح العطرة التى تحرق يوميا فى أفران المخابز ومصانع الجير والحمامات ، من شأنها أن تخفف من وطأة روائح البحيرة وتحد من تأثيراتها الوخيمة على صحة البشر وحياتهم . ونفس الملاحظة نجدها عند الفرنسى رونى ديفونتان (René Desfontaines) (27) . أما باليسى (Pellissier) (28) عضو اللجنة العلمية بالجزائر الذى تجول بالايالة التونسية سنة 1840 فلم يكن شديد الحماس لما شاهده بمدينة تونس ، وعلى الرغم من ذلك فانه لاحظ كغيره ، أن تلوث البحيرة لا يؤثر على صحة الاهالى أو على القاطنين من الاجانب .

وعلى عكس هؤلاء الزائرين نجد آخرين أعجبوا شديد الاعجاب بالبحيرة فتركوا فى شأنها صفحات تغنوا فيها بسحر ألوانها عند الغروب وجمال الطيور التى تعيش على ضفافها ورونق البوارق الصغيرة التى تخترق قناتها . نذكر من بينهم السويسرى هنرى دونان (Henri Dunant) (29) من مواليد جناف (Genève) ذات البحيرة الشهيرة وهو المحرز على جائزة نوبل سنة 1901 والباعث للوجود لجمعية الصليب الأحمر الدولى . ثم المالطى ماريوس سكالزى (Marius Scalsi) الشاعر الذى توفى وهو لم يتجاوز الثلاثين سنة وهو المعروف « بالشاعر الملعون» خلد لنا أجمل ماكتب عن البحيرة (30).

والبحيرة حاليا لا يبلغ عمقها المتر والنصف الا فى أماكن قليلة بل المعدل يتراوح بين 80 سم و 50 سم .

وبعد انتصاب نظام الحماية شعرت السلط الفرنسية بوجوب فتح قناة

---

(25) Dr. Louis Frank, *Tunis : description de cette régence, accompagnée d'un précis historique et d'éclaircissement tirés des écrivains orientaux par J.J. Marcel* (volume Afrique, Tome, VII de la Collection de l'Univers pittoresque, Paris 1880).

(26) Sir Grenville Temple, *Excursions in the mediterranean*, London, 1835, 2 Vol. trad. Grandchamp, Paris.

(27) René Desfontaines, *voyages dans les régences de Tunis et d'Alger*, publié par Dureau de la Malle, 1838.

(28) Henri Monchicourt, *le voyageur Peyssonnel*, Tunis, 1916.

(29) Henri Dunant, *Notice sur la régence de Tunis*, Genève, 1858.

(30) Le Soleil africain, exubérant, fulgure.
La brise a remué des épaisseurs de feu
Et son frisson salin me jette à la figure
Les tièdes puanteurs qui montent du lac bleu.
Pauvre lac, que l'été dessèche et diminue
Et que ronge la vase insatiablement,
Eau limoneuse à qui le reflet de la nue
Inflige, en feu d'azur, un vaste embrassement.

(Le lac bahira - Edit. de la Kahena).

جديدة وهي الموجودة اليوم سنة 1895 ، وطولها حوالى عشرة كيلو مترات تمتد بين ميناء تونس ومرسى حلق الوادي وتتسع لكبار البواخر .

ولكن تلوث البحيرة ازداد خطورة بازدياد السكان وظهور المدينة الاوروبية الجديدة ، فاهتمت المصالح البلدية بالبحث عن طريق جديد يمكن من اجلاء المياه القذرة دون الالتجاء الى البحيرة فأعدت منطقة نشر (Champ d'épandage) بالشرقية مساحتها 160 هكتارا . تبعد خمسة كيلو مترات عن تونس وأضافوا اليها « معمل ارتداد » (Usine de refoulement) ولكن حجم المياه العفنة كان يزداد يوما بعد يوم ، فانكبت المصالح المختصة على اعداد مصنع آخر يمكن بواسطته القضاء على ما يقرب من 45.000 مترا مكعبا فى اليوم الواحد ومعمل لتصفية المياه حسب الطريقة البيولوجية . (31)

واليوم فان معمل الشرقية للتصفية لا يزال غير كاف اذ تقدر كمية المواد العضوية المنصبة سنويا بالبحيرة بـ 12.000 طنا (32) ولذا فان الحكومة قد عقدت العزم على استئصال الداء ، فبادرت بتوسيع معمل الشرقية ثم شرعت فى اعداد الدراسات حتى تعود البحيرة الى ما كانت عليه بحيرة فسحة ومنتزه لسكان تونس وضواحيها .

عبد العزيز الدولاتلي
المعهد القومى للاثار والفنون
ـ تونس ـ

---

(31) A. Pellegrin, *op.cit.*, p. 125.
راجع بالخصوص نشرية قامت بها بلدية تونس بمناسبة معرض مدينة قاند (Gand) قدمها فلانزى T. Valensi وفانسان (Vincent) والدكتور كونساى Dr. Conseils تونس ، 1930 والتى تعرض لنا الحالة فى سنة 1913 .

(32) Association Tunisienne pour la protection de la nature et de l'environnement — Bulletin de liaison spéciale — *Etat de la pollution marine en méditerranée et réglementation*, p. 12, Avril, 1974.

رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541

عبد الجليل التميمي

عرف النصف الاول من القرن السادس عشر احداثا سياسية هامة (*)، حددت مستقبل المغرب السياسي، وشكلت علاقاته مع كل من الامبراطورية العثمانية والدول الاوروبية فيما بعد، وقد ساهمت الاحداث الداخلية في اسبانيا، في هاته الفترة، بقسم كبير في بلورة هذه الاحداث، ذلك انه بعد سقوط غرناطة سنة 1492 اتبعت اسبانيا المسيحية تجاه مسلمي الاندلس سياسة تهدف للقضاء تدريجيا وبصورة جذرية على كل مظاهر الاسلام، ذلك ان نخوة النصر التي اجتاحت اسبانيا قد ألهبت العواطف وطغت على منطق العقل، منطق جديد أحاطه رجال الكنيسة بقدسية سماوية تحكمت في كل القرارات التي اتخذها رجال الدولة السياسيين. واصبحت اسبانيا تؤمن بان عليها واجب تطهير ارضها من المسلمين والاسلام والتي اصبحت تخشى منه ومن شبحه (1)، خصوصا بعد نجاح التوسع العثماني السريع في اوروبا وافريقيا وآسيا.

اندفعت اسبانيا في محاولة لتصفية المسلمين فارضة اقسى الاجراءات عليهم وتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين (2) وقد اعترف ملوك اسبانيا خلال القرن السادس عشر بحتمية الاستمرار في تطبيق هذا القانون، وبذلك خيرت الاقلية الاسلامية الاسبانية التي عرفت شتى ظروف التتبع والملاحقة عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير او الرق مدى الحياة (3)، وصودرت املاكهم وحرم عليهم التكلم باللغة العربية، وارتداء الالبسة الوطنية، والتردد الى الحمامات، وفتح ابواب منازلهم ايام الحفلات والجمعة والسبت (4) واقامة الشعائر الدينية وعدم التسمية باسماء عربية، كما حولت جميع المساجد الى كنائس (5)، ومنع المسلمين من حمل السلاح كما فرض عليهم العيش في احياء خاصة وارتداء البسة معينة وان يحملوا اشارة زرقاء على القبعة اذا ما

(*) تعريب نص المحاضرة التي القيت باللغة الفرنسية في المؤتمر العالمي الاول عن الدولة العثمانية المنعقد بالمعهد الجامعي للدراسات الشرقية بنابولي (ايطاليا) ما بين 24 و 26 سبتمبر 1974.

(1) John Lynch, *Spain under the Habsburgs*, p. 205, 2e édition, London, 1965.

(2) P. Chaunu, *L'Espagne de Charles Quint*, p. 37, Paris, 1973.

(3) Tulio Halperin Donghi, « Recouvrements de civilisations : les morisques du royaume de Valence au XVIe siècle », p. 169, in, *Annales E.S.C*, 1956.

يذكر أنه بعد الحرب، امتلأت بيوت الطبقات البورجوازية بعدد من العبيد الذين أسروا في غرناطة.

(4) محمد عبد الله عنان، **نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين**، ص 354 ـ 355، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1966.

(5) **المصدر نفسه**، ص 351.

بقوا على دينهم ، كما حرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والاحجار الكريمة، وامروا ان يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الاحبار (6) ، وسلطت عليهم اقصى انواع العقوبات اذا لوحظ عليهم بعض الولاء الى ماضيهم أو التعلق بدينهم فى ابسط مظاهره وعاداته. على ان تشكيلهم وحدة اجتماعية وسيطرتهم على الاقتصاد بفضل نشاطهم وذكائهم وخبرتهم فى تصريف شؤون التجارة والزراعة وازدهارها على ايديهم (7) قد اثار نجاحهم هذا ، حقد الشعب عليهم الذى اتهمهم بالتآمر ضد أمن الدولة خصوصا وهم « الحلفاء الطبيعيون لاخوانهم قراصنة « شمال افريقيا » (8) كما كانوا يعتبرونهم آنذاك .

ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف ان يلتجىء المورسكيون الى الثورات والانتفاضات فى اغلب المدن التى بها اقلية اسلامية وخاصة فى غرناطة وبلنسية وقد اقمعت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة ، واتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد على هذه الطائفة ، ومن جهة اخرى كان من الطبيعى ان يلتجىء المورسكيون الى الملوك المسلمين فى المشرق والمغرب لاستنجادهم وان تتكرر دعواتهم ووفودهم ورسائلهم اليهم للعمل على انقاذهم مما يعانونه من الظلم وخاصة من رجال الكنيسة وديوان التحقيق الذى عاث فسادا واحل لنفسه كل انواع العقوبات وتسليطها عليهم .

وقد ارسل اهل غرناطة فى منتصف سنة 1477 سفارة الى استانبول ملفتين نظر السلطان العثمانى محمد الفاتح الى حالة المسلمين بالاندلس ، طالبين تدخله لانقاذهم (9) ، كذلك السفارة التى وصلت الى سلطان مصر الملك الاشرف فى اواخر القرن الخامس عشر ، مستنجدة اياه فى التدخل لانقاذهم من الملوك النصارى ، وقد بعث الملك الاشرف بوفود الى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بان النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات ، فى حين ان ابناء دينه فى مدن اسبانيا يعانون اشد انواع الظلم ، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه المسيحيين اذا لم يكف ملك قشتالة واراقون وغرناطة عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن اراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما اخذ من اراضيهم (10) .

أما السلطان بايزيد الثانى فقد اتصل بقصيدة من احد المورسكيين يصور له فيها مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وانقاذهم (11) .

اما نداءاتهم لملوك المغرب فقد تعددت مع مرور الايام غير ان الاوضاع الداخلية التى كان عليها المغرب وخضوع بنى وطاس لاسبانيا وعقد معاهدة 1538 معهم وازدياد النفوذ الاسبانى ـ البرتغالى على السواحل المغربية قد جعل من المستحيل القيام برد فعل حازم وفعال .

---

(6) المصدر نفسه ، ص 353 ـ 354 .

(7) Lynch, *op.cit.*, p. 211.

راجع ايضا :

F. Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen*, T. II, p. 129, 2ᵉ édition, Paris, 1966.

(8) Joseph Pérez, *L'Espagne du XVIᵉ siècle*, p. 108, Paris, 1973.

(9) Aziz Samih Ilter, *Şimali Afrikada Türkler*, t. I, p. 52, Istanbul, 1937. (الاتراك فى شمال افريقيا)

(10) ابن اياس فى تاريخ مصر ، ج 3 ، ص 246 ، مذكور فى : عنان ، نفس المصدر ، ص ، 221 .

(11) المقرى ، ازهار الرياض فى اخبار عياض ، ج 1 ، ص 109 ـ 115 ، القاهرة ، 1939 .

على ان النجاح السريع الذى عرفته الامبراطورية العثمانية فى كل من اوروبا وافريقيا ومدى الانتصارات الحربية التى حققها السلطان سليم وسليمان القانونى على الجيوش الاوروبية الحليفة آنذاك ، وسقوط عدد من العواصم الاوروبية ، قد اعطى ابعادا اخرى لهذا الصراع الذى واجهته الامبراطوريتان العثمانية والاسبانية والذى اتخذ شكل محاربة دين كل منهما للآخر . على ان الانتصارات التى حققها العثمانيون والاهمية التى اصبحت عليها استانبول بعد الفتح ، قد شجع عددا من المهاجرين المسلمين واليهود على الاستقرار بالعاصمة العثمانية (12)

كان الموريسكيون يتتبعون باهتمام مدى النجاح الذى حققه العثمانيون ، وكيف دانت لهم كل من سوريا ومصر ، وخاصة الجزائر التى اصبحت حصنا منيعا يلتجيء اليه المهاجرون الاندلسيون. ان وجود خير الدين بيلرباى الجزائر فى العقد الثالث والرابع من القرن السادس عشر ومدى النجاح الذى حققه فى ملاحقة الاسبان بالولاية ثم تدميره حصن البينون (Penon) سنة 1529 بالجزائر وتشجيعه حركة انقاذ مسلمى الاندلس قد جعل الاسبانيين يصرون على ملاحقة المسلمين اينما كانوا ، وتشديد الحملات عليهم ، واقامة القلاع الحصينة على ارض افريقيا الشمالية ، ومراقبة الحركة البحرية العثمانية ، وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التى ما فتىء البحارة المغاربة يقومون بها بنجاح لانقاذ الموريسكيين من الارض الاسبانية ، كما كان هؤلاء يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ، ويمدونهم سرا بالمعلومات اللازمة للقيام بهجماتهم بنجاح (13)

وقد اظهر قادة اسبانيا خوفهم من اتحاد كلمة الموريسكيين مع العثمانيين ، فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك ، الى انشاء «ميليشيا» لرد هجمات المغاربة الخطيرة (14) لانقاذ الاقليات الاسلامية المبثوثة فى عدد من الولايات الاسبانية ، وبالفعل كان نشاط خير الدين فى هذا المضمار حاسما وفعالا ، وهو الذى عرف ببعد نظره وحيويته الفائقة (15) والاصول الحربية التى اشتهر بها فضلا عن شخصيته القوية وما تمتعت به من ارادة ، وهذا اكسبه احترام اعدائه وخوفهم منه . ان نجاح حركة خير الدين البحرية وهجماته الموفقة على السواحل الاسبانية جعل الموريسكيين يستنجدونه لانقاذهم كاهل بلنسية (16) وغرناطة وغيرها وكثيرا ما قام قواده امثال صالح رايس (17) وايدين رايس وطبقة رايس بهذه المهمة . ويذكر لنا المؤرخ كاتب شلبى ان خير الدين تمكن خلال سبع سفرات ان يوجه 36 بارجة الى السواحل الاسبانية لنقل سبعين الف موريسكى (18) خلال سنة 1529 ، ويدل هذا على

---

(12) W.E.D. Allen. *Problems of Turkish power in the sixteenth century*, p. 12, London, 1963.

(13) محمد خير فارس ، **تاريخ الجزائر الحديث ، من الفتح العثمانى حتى الاحتلال الفرنسى** ، ص 17 ، دمشق ، 1969 .

(14) Chaunu, *op.cit.*, t. I, p. 242.

(15) Fray Diego de Haedo, *Histoire des Rois d'Alger*, traduit par Grammont, p. 38.

(16) محمد عبد الله عنان ، **نفس المصدر** ، ص 386 .

(17) Haedo, *op.cit.*, p. 38.

(18) كاتب شلبى ، **تحفة الكبار فى أسفار البحار** ، ص 40 ، استنابول ، 1911 .

مدى الدور الفعال الذى قام به خير الدين لانقاذ آلاف من مسلمي الاندلس الى السواحل المغربية (19) .

ان نجاح خير الدين فى خلق هيكل دولة قوية بالجزائر ، ثم المساندة المعنوية والعسكرية التى كان يلقاها لدى السلطان سليمان القانونى قد حثه على الاستمرار فى جعل المغرب قاعدة عثمانية لصد الهجوم الاسبانى ، بل ان السياسة العثمانية كانت تهدف الى اشغال جيوش شارل الخامس فى حوض الابيض المتوسط الغربى ، وهذا ما يفسر اقدام خير الدين اثناء رجوعه من استنابول منذ 1534 على احتلال تونس واعلانها ولاية تابعة للامبراطورية العثمانية .

ادخل هذا الانتصار الحيرة لدى البابا، وخاصة الامبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلك تهديدا مباشرا للمسيحية ولخطوط مواصلاته البحرية مع اطراف مملتكه ، فضلا عن تغذية وتشجيع البحارة المغاربة للهجوم على السواحل الاسبانية ، ونجدة مسلميها ، وبالفعل نجح شارل الخامس فى الاستيلاء على تونس وابعاد خير الدين عنها ، غير ان الخطة التى كان يحلم بتحقيقها ليست الاستيلاء على تونس حيث كانت اوضاعها الداخلية ، واستنجاد مولاى حسن الحفصى بشارل الخامس ، قد ساهمت بشكل كبير فى انجاح الحملة ، انما هى ضرب مدينة الجزائر والاستيلاء عليها خصوصا وان الشخصية القوية خير الدين قد دعيت الى استانبول ليصبح قبطان دريا اى وزير البحر العثمانى ، ولم يبق للامبراطورية العثمانية على الساحل المغربى الا الجزائر .

وعليه كان شارل الخامس يخطط للقيام بحملة على الجزائر التى أصبحت قاعدة قوية وحصينة للسلطان سليمان القانونى تجاه السواحل الاسبانية خصوصا بعد الأنباء الحزينة التى وصلته من أوروبا اثر نجاح جيوش السلطان سليمان فى الاستيلاء على مدينة بود (Bude) (20) وتحويل أكبر كنائسها الى مسجد . كان هذا الحدث بمثابة اهانة وتهديد للتكتلات المسيحية الاوروبية (21) . أصر شارل الخامس اذن على التوجه بأضخم أسطول قام على اشرافه واحضاره ، ويبدو أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة التى ظهرت فى القرن السادس عشر (22) ، وكان البحارة والجيش خليطا من مختلف أصقاع الامبراطورية الاسبانية ، وكان هدف الحملة هو الاستيلاء على الجزائر ، واجتثاث العثمانيين من البحر الابيض المتوسط ، وعزل فرنسا وقطع

---

(19) Charles-André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord, Tunisie - Algérie - Maroc de la conquête arabe à 1830*, 2ᵉ édition, revue par Roger Le Tourneau, p. 254, Paris, 1964.

أما **بيسون** فى مقاله : **المورسكيون** ، دائرة المعارف الاسلامية (باللغة التركية) ج 8 ، استنابول ، 1968 ، يذكر ان الامبراطورية العثمانية قد ساعدت المورسكيين عندما طلبت من كليج باشا تقديم الاسلحة والمهمات الحربية اليهم .

(20) C. Brandi, *Charles Quint et son temps (1500 - 1558)*, p. 454, Paris, 1951.

(21) Colonel Lamouche, *Histoire de la Turquie*, p. 99, Paris, 1953.

راجع أيضا :

Halil Inalcik, « The Heyday and decline of the Ottoman Empire », t. I, p. 328, in, *The Cambridge History of Islam*, Cambridge, 1970.

(22) مولاى بلحميسى ، « غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر بين المصادر الاسلامية والمصادر الغربية » ، ص 42 ، المنشورة فى ، **مجلة تاريخ وحضارة المغرب** ، عدد 6 و 7، الجزائر ، 1969 .

طريق النجدة اليها عن طريق حلفائها العثمانيين (23) . وكان الاسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب لأمكنهم انشاء مملكة على السواحل المغربية (24) ، وهم بذلك يقطعون الطريق على رسل الموركسيين الى استنابول لطلب النجدة ، ومما لا شك فيه أن احتمال قيام العثمانيين بحملة على اسبانيا قد أثيرت فى بلاط مدريد (25) .

ان اصرار شارل الخامس الشخصي فى اختيار زمن الهجوم وتجمع كلمة الجزائريين وراء حسن اغا ، ثم نزول الأمطار بكثرة وهبوب عواصف مبكرة ، ألحقت بجيش شارل الخامس أكبر هزيمة حربية وبحرية منى بها فى حياته ، وكان ذلك فى أواخر شهر اكتوبر 1541 . على أن نتيجة هاته الحملة كانت بعيدة المدى وذات نتائج محسوسة حيث أصبحت الجزائر «كالعروس تختال فى حليها وحليها من رخاء الأسعار، وأمان الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه ، وشاعت هذه القضية فى مشارق الارض ومغاربها ، وبقى رعب المسلمين فى قلوب الكفار مدة طويلة » (26) .

وقد ترددت انباء هاته الهزيمة فى اسبانيا وكان وقعها شديدا على القادة ورجال الدين ، الا ان صداها لدى الموركسيين كان مؤثرا وبالغا حيث جعلتهم يتطلعون الى النجدة من السلطان العثماني : وبالفعل ففى اقل من شهر فقط من هزيمة شارل الخامس امام الجزائريين بعث مسلمو الاندلس برسالة الى السلطان سليمان القانوني ، وعلى الرغم من تعدد رسائل الموركسيين الى السلاطين العثمانيين، حسب مختلف الروايات التركية والعربية والاوروبية ، الا انه لاول مرة نعثر على نص من هذا القبيل ، ويسرنا ان نقدمه اليوم الى الباحثين .

* * *

لا يوفر لنا هذا النص الاسم أو الاسماء التى قامت بتحرير هاته الرسالة ، ويفسر ذلك بخشية وقوعها فى يد السلطة الاسبانية التى كانت تحرص دوما على بث العيون والجواسيس للعثور على مثل هذه الرسائل والمعلومات ، وانها لتكشف عن معلومات ذات اهمية تاريخية ، كعدد الموركسيين الموجودين بالاندلس ، واعطاء صورة حية مؤلمة لما يلقونه من السلطة الاسبانية المسيحية آنذاك ، ومدى الحيرة التى تمكنت منهم ، ثم التاكيد على نشاط خير الدين وما قام به لانقاذهم ، ومطالبة السلطان سليمان القانوني باعادة تعيينه بيلرباى الجزائر لانه الشخصية الوحيدة القادرة على انقاذهم من الهجومات الاسبانية .

فبخصوص عدد الموركسيين بالاندلس تضاربت الاحصائيات تضاربا كبيرا خلال القرن السادس عشر وبالنسبة للمدن الكبرى كغرناطة آخر معقل للمسلمين وبلنسية وقشتيلة واراقون وغيرها ، وقد جاء فى رسالتنا هاته ما يلي : « ان عبيدك الفقرا (كذا) الغربا (كذا) المنقطعين بجزيرة الاندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة الف واربعة وستون الف منهم من رسايهم بغرناطة خمسون

(23) E. Ravenet, « Un épisode de l'expédition de 1541 contre Alger », p. 320, in, *Revue Africaine*, 3ᵉ et 4ᵉ trim., 1939.

(24) L. Guin, « Quelques notes sur les entreprises des Espagnols, pendant la première occupation d'Oran », p. 313, in, *Revue Africaine*, nº 178, Juillet-Août, 1886.

(25) Lynch, *op.cit.*, p. 214.

(26) سليم بابا عمر ، « الزهرة النيرة فيما جرى فى الجزائر حين غارت عليها جنود الكفرة ، ص 19 ، المنشورة فى : **مجلة تاريخ وحضارة المغرب** ، عدد 3 ، الجزائر ، 1967 .

وغيرها بجزيرة الاندلس والباقى من عامة المسلمين ... » (27) . يتبين لنا ان ذكر هذا الرقم لا يدل قطعا على اعطاء رقم اعتباطى اجمالى، بل ان ذكر الاربعة آلاف بعد الستين الف توحى بمدى حرص محرر الرسالة وبلا شك اطلاعه على عدد المورسكيين ، على أننا اذا أخذنا بعين الاعتبار احصائية سكان آسبانيا البالغ عددهم ستة ملايين (28) سنة (1541) ، وهى السنة التى حررت فيها رسالتنا لا نستغرب الرقم الذى قدمته هاته الوثيقة ، ومما يساعد على تقريب هذا العدد ما قدمه المؤرخ محمد عبد الله عنان من ان سكان غرناطة وحدها بلغ 400 الف (29) فى اوائل القرن السادس عشر والمؤرخ شونو (Chaunu) 500 الف (30) وانطونيو بلستيرو (A. Pallestros) 700 الف (31) .

ومن جهة اخرى يذكر المؤرخ هنرى لابير (H. Lepeyre) ان المسلمين القاطنين سنة 1609 باسبانيا بلغ 296٫000 اى حوالى 300 الف (32) وان الذين غادروا اسبانيا بلغ عددهم 275 الف. ولا بد ان نأخذ بالاعتبار الهجرات المتكررة من اسبانيا الى المغرب لنلمس تأثير ذلك على عدد السكان خلال 68 سنة الفاصلة بين هذين التاريخين . يتبين لنا اذن ان رقم 364 الف الذى قدمته هاته الوثيقة يمكن الاعتماد عليه ، كما انه يندرج ضمن عديد الاحصائيات المتضاربة التى نملكها ، ولا شك انه اليوم اقربها الى الصواب والواقع .

ترسم الوثيقة بعد ذلك صورة مؤلمة وحية لما قاساه المورسكيون فى عهد محاكم التحقيق والقرارات الجائرة التى سلطت عليهم ، ولا ادل على ذلك من قراءة نص الرسالة نفسه ليعكس لنا هذا النداء الاليم والمفجع الذى أصطبغت به الكتابات النادرة من الجانب العربى والتى وصلت الينا عن هذا الموضوع . وقد تعددت منهم نداءات النجدة لملوك المغرب الاقصى، الا انالتحديات والحملات التى ما فتئت السفن الاسبانية والبرتغالية تشنها على الساحل المغربى لم تدع مجالا لاتخاذ موقف اكثر فعالية ونجاعة فى نظر المورسكيين ، على ان ذلك لم يمنع المهاجرين الاندلسيين المرابطين على السواحل ألمغربية من العمل على نجدة اخوانهم الاندلسيين .

على ان الذى يلفت انتباهنا فى هاته الرسالة هو اطلاع المورسكيين الدقيق على احداث البحر الابيض المتوسط وتتبعهم لما يجرى فى المنطقة من احداث وحروب ونتائج وسرعة وصول الاخبار اليهم ، اذ بعد اقل من شهر لهزيمة شارل الخامس ، وعلى الرغم من تحويل بقايا جيشه الى ايطاليا بدل اسبانيا ، وصل الى علم المورسكيين خبر فداحة هزيمة عدوهم شارل الخامس امام الجزائريين ، واعتبروا ذلك نصرا من عند الله ، وقوى املهم ، وهذا ما يفسر تلقائيا تحريرهم هاته الرسالة الى السلطان سليمان القانونى واستنجادهم به وتذكيره ما قام به خير الدين الذى انجدهم عند ما كان بيلرباى الجزائر .

ان هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين قد أضفت على هاته المدينة مغزى كبيرا ورمزا للجهاد والدفاع عن المسلمين باعتبارها : « سياج

(27) راجع نص هاته الرسالة فى آخر هاته الدراسة ، ص 43 – 46 .
(28) P. Chaunu, *op.cit.*, t. I, p. 90.
(29) عنان ، **نفس المصدر** ، ص 232 .
(30) P. Chaunu, *op.cit.*, t. I, p. 165.
(31) *Ibid.*
(32) Jean Pignon, « Une géographie de l'Espagne morisque », p. 73, in, *Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid-Tunis, 1973.

لاهل الاسلام وعذابا لاهل الكفر والطغيان ... واصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة والرعية المؤتلفة بها مؤتلفة اليفة ... » (33)

اعتبر محررو هاته الرسالة ان المدد المرسل الى الجزائر هو تعزيز لشوكة المسلمين ولذا طالبوا السلطان باعادة تعيين خير الدين باشا على الجزائر ليعمل من جديد على صد العدوان الاسباني ، وانقاذ مسلمي الاندلس، وهذا ما يؤكد مدى السمعة والشعبية التي كان يتمتع بها خير الدين في الربع الثاني من القرن السادس عشر .

تساهم هاته الوثيقة بما وفرته من معلومات ذات اهمية تاريخية على القاء اضواء جديدة على قضية الموركسيين (34) هاته القضية التي لا نعلم عنها الا ما نقلته الينا الوثائق الاسبانية المشبعة بروح التحزب الديني والكره والحقد على المسلمين ، اما الوثائق العربية او التركية فهي ضنينة جدا ولا تستجيب حقا لتساؤلات المؤرخ العديدة .

عبد الجليل التميمي
كلية الآداب ـ الجامعة التونسية

نص الرسالة (35)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى اله وصحبه يقبل مواطي الاقدام الشريفة التي ثراها ، اذا مر بالعيون الرمدة أبراها ، ورحاب الاكف الكريمة اللتي (كذا) عطاها (كذا) ، اذا مر بالارض الممحلة اثراها ، اقدام شانها السعي في الخيرات والقربات ، وأكف شانها فعل الخيرات والمكرمات ، ادام الله ايامها ونصر اعلامها ، وأوطاء (كذا) ركابها اعناق الملحدين والمتمردين ، وانعشه في كل وقت بنصر وفتح مبين ، نسئل (كذا) الله تعالى ان يجعله اركابا لم يزل ممتطيا مطايا السعد ، محفوفا بالسعود ، قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود ، وان يجعله دايما باقيا راقيا في درجات العز والملك الى اخر الدهر ، مصونا في حرز كنف الله الحريز ، وان يخرق له العادة بطول بقايه وما ذلك على الله بعزيز ، ركاب حضرة الجود ، ورواق العز الممدود ، ومعدن الرافة والحنان ، ومامن الخايف اللهفان ، ومظمن ان الله يامر بالعدل والاحسان ، حضرة فخر ملوك البسيطة ، ودرة تلك السلوك الوسيطة ، كبير سلاطين الزمان ، منيل افانين الاماني والامان ، الملاذ الاعظم والثمال الاعصم ، ذي العروة اللتي (كذا) لا تفصم ، والحجة اللتي (كذا) لا تخصم ، الذي يعترف له القاصي والداني بالفضل على الاطلاق ، يبوءه رتبة الاصالة والجلالة بالاستحقاق ولم لا وهو

---

(33) راجع نص الرسالة اثر هاته الدراسة ، ص 43 ـ 46 .

(34) من الغريب ان يخصص أحد مشاهير الاستشراق الفرنسيين لوفي بروفنسال (Lévi-Provençal) بعض الاسطر لقضية الموركسيين في دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الاولى ، ونحن نأمل أن يسد هذا النقص والحيف العلمي بالنسبة للطبعة الجديدة بدراسة أعمق وأشمل لجوانب هاته المسألة التاريخية والتي تكتسي أهمية خاصة في نظر المؤرخين العرب والاوروبيين على حد سواء .

(35) عثرنا على هاته الوثيقة بارشيف متحف طوب كابي (Top Kapı) باستنابول تحت رقم T.K.A, 3154 ، وهي بخط مغربي أندلسي سهل القراءة جيده . اما الوثيقة فذات حجم 44،5 طولا على 24،5 سنتم عرضا ، راجع الشكل رقم 1 ، ص 44 .


بسم الله الرحمن الرحيم والصلوة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه

الشكـل رقـم 1 . رسـالة من مسلمي غرنـاطة الى السلطان
سليمان القـانوني سنـة 1541 .
T. K. A. 3154 ارشيف متحف طوبى كابى رقـم

نسيم الخلافة العلية فى منصب الوراثة ، وحايز الفضيلة السنية من خدمة المساجد الثلاثة ، وله ملك مصر وانهارها ، والشام وديارها ، والحجاز وشرف مقدارها ، والى حضرته مجتمع الرفاق من الافاق ، واليها تحجج الاجسام بالرحلة والافئدة بالاشواق ، وعلى جمع تلك الحضرة العليا لمحاسن الدين والدنيا ، انعقد الاجماع والاصفاق (كذا) ، مولانا السلطان الملك الاشرف الاضخم الارفع الاعرف الاعلم الاحلم الارحم الارف (كذا) ، الاجود الاكرم الاسمح الاعطف ، قامع الملحدين وقاطع دابرة الطغات (كذا) والبغات (كذا) والمردة والمفسدين ، ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة ، الفايز بشرف الدين والدنيا من الجهاد فى سبيل الله والسقاية فى المسجد الحرام والعمارة ، مطهر البسيطة من درن فسادها ، ومظهر آيات الرافة والرحمة فى بلادها ، سلطان الاسلام والمسلمين ، عز الدنيا والدين وظل الله على الخليقة اجمعين السلطان بن السلطان بن السلطان ، السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان ، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله ، وضاعف لديه مواهب اكرامه وافضاله ، وادام نجم سعده المنير باهر الاشراق ، وجعل سهم ضده الحقير لازم الاخفاق ، وحفظ بشهب اولياء مجده من مردة النفاق ، جميع الاقطار والآفاق ، فهو الامام الهمام ، والاسد الباسل الضرغام ، الذى مهد الله تعالى بدولته البلاد ، وامن ببركة ايالته فى مسالكها وممالكها العباد ، ومزق به ثوب الفساد ، وقطع بسيفه وسنانه وبادرتى قلمه الاعلى ولسانه دابر اهل العناد ، فسعد الاسلام بدولته ، واعتز دين الله العزيز فى مدته ، وخمدت نيران البغي بسعادته ، وامتدت الامانى وشمل الامان بحسن سياسته ، نسئل (كذا) الله تعالى ان يصل لسيدنا ومولانا عادت (كذا) نصره وتمكينه ، ويريه قرة العين فى دنياه ودينه وبعد : فان عبيدك الفقرا (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الاندلس وجملة عدتهم ثلثمائة الف واربعة وستون الف منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقى من عامة المسلمين ، رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما اصابهم من اعداء الدين وطغاة المشركين ، وما هم فيه من مكابدة الكفار ، ومقاسات (كذا) التضييق والاضرار ، وجور اهل الشرك اناء الليل واطراف النهار ، وتحريقهم ايانا بالنار (36) قد تكالب العدو علينا، وعدد السوء والضرر الينا ، واحاطت بنا الاعداء من كل جانب ، ورمونا عن قوس واحد بسهم صايب ، وطالت بنا الايام ، وعاشت فينا يد النكاية والايلام، وخذلنا جيراننا واخواننا ببلاد المغرب من اهل الايمان ، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم ، المجاهد فى سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين ، علم باحوالنا ، وما نجده من عظيم اهوالنا لما كان بالجزائر ، واجتمعت اهل الاسلام على اطاعة مولانا ومحبته بالخواطر والظماير (كذا) ، وانتظم العدل والشرع والامان فى البادى والحاضر ، فاستغثنا به فاغاثنا وكان سببا فى خلاص كثير من المسلمين ، من ايدى الكفرة المتمردين ، ونقلهم الى ارض الاسلام ، وتحت ايالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك (37)

---

(36) من المسلم به تاريخيا أن محاكم التحقيق كانت كثيرا ما استعملت الحرق تنكيلا بالاعداء واتهامهم بالمروق والزيغ وخاصة بالثوار المسلمين ، راجع : عنان ، **نفس المصدر** ، ص 341 .

(37) فى النص الاصلى توجد هاته الكلمة على الشكل التالى : برشل . وعلى الرغم من تحرياتنا لم نتمكن من معرفتها وتحديد مكانها ، لكن بالرجوع الى كتاب التر **نفس المصدر** ، ج 1 ، ص 59 ، يذكر ان الاندلسيين استقروا فى عدد من المدن الساحلية ومنها مدينة برسك (Prisk) ونتساءل هل هو تحريف لكلمة برشل ؟ وحتى برسك لم نعثر على تحديد لها .

وشرشال ونواحى تلمسان ، فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والاهانة والحرق بالنيران ، علم انا اخترنا المصيبة فى الاموال والابدان ، واثرنا ديننا على ساير الاديان ، فلما صدقت الضماير ، وبلغت القلوب الحناجر ، خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا اموالنا واوطاننا وهجرتنا وفرارنا الى بلاد الاسلام لسلامة ديننا ، تحاير فى امره ، وجمع اليه اهل تدبيره وحزبه ، فدبروا ومكروا وهل يحيق المكر السىء الا باهله ،؟ واتفق رايهم المعكوس ، وتدبيرهم المنكوس ، على قتال الجزائر ، ليلا يبقى ببلاد المغرب لاهل الاسلام ناصر ، فعاقبهم الله بعقاب اصحاب الفيل ، وجعل كيدهم فى تضليل ، وارسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا) ، فجعلهم بسواحل البحر ما بين اسير وقتيل ، ولا نجا منهم من الغرق قليل ، والان اشتد غضبهم على اهل الاسلام ، وهم يتوسلون بالرهبان والاصنام ، ونحن نتوسل بسيد الانام الى موجب الوجود ذو (كذا) الجلال والاكرام ، وهم عازمين (كذا) على الجزائر ، والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله ، المدد المدد لنصرة الجزائر لانها سياج لاهل الاسلام ، وعذاب وشغل لاهل الكفر والطغيان ، وهى موسومة باسمكم الشريف ، وتحت ايالة مقامكم المنيف ، وقداصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة ، والرعية المختلفة بها مؤتلفة اليفة ، وطراز رونقها المجاهد فى سبيل الله عبدكم الوزير الاجل خير الدين ، الممتثل لاوامر مولانا ، ونتاج عز الدنيا والدين ، فانه احيا هذا الوطن ، وجميع النواحى والسكن ، وارعب قلوب الكفار ، وخرب ديار المردة والفجار ، واظهر نظام السلطنة العثمانية واحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والامصار ، فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من ارساله لهذا الوطن ان رءا (كذا) مولانا صلاح (كذا) فى ذلك فيكون ذلك غاية الاحسان لجميع اهل الاسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوا (كذا) الى مولانا السلطان الاعظم سلطان الاسلام لا زال بالعز موصوف (كذا) وبالبهاء والنصر محفوف (كذا) بان يغيثنا بارسال المجاهد خير الدين باشه (كذا) الى الجزائر ، فانه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع اهل الشرك منه خايف وحاير (كذا) ، والسلام التام على المقام الشريف العالى ورحمة الله بتاريخ اوايل شهر شعبان احد شهور سنة ثمانية واربعين وتسعمائة (38) .

(38) ما بين 19 و 29 نوفمبر 1541 .

من سجلات محاكم الشرع في بورصة :

مغاربة في تركيا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر

خليل الساحلي

قدمنا فى العدد الاول من هذه المجلة تسع وثائق ، حجج صدرت عن محاكم الشرع فى مدينة بورصة ، أحصينا فيها عشرة من المغاربة كان قد طاب لهم المقام فى تلك البلدة . ونقدم اليوم كصلة للبحث السابق 19 وثيقة أخرى نحصى فيها ثمانية عشر مغربيا ، ومن الاقمشة نوع كان يطلق عليه اسم مغربى فالوثيقة التاسعة تتحدث عن « ثوب مخيط من المغربى » مقوم بمائتى درهم عثمانى رائج فى ذلك الوقت . أما المغاربة الذين جاءوا الى بورصة واتخذوها وطنا لهم انما ذلك لما أتاحته لهم من فرص للشغل وامكانيات للتجارة وحفاوة الحكام بهم ، وذلك حبا منهم فى زيادة العناصر الاسلامية فى بلد مفتوح وقصد الازدهار والرفاه لذلك البلد .

كما كان السلاطين اذا سنح لهم فتح بلد فيه صناع مهرة أو تجار أثرياء أو أدباء أو فقهاء يستجلبونهم الى العاصمة بشتى أوجه الاغراء والترغيب فان امتنعوا من ذلك جلبوهم بطرق جبرية . وذلك ما وقع من سليم الاول عندما فتح البلاد التى كانت بيد المماليك وكذلك عندما فتح تبريز .

المغاربة

أحصينا فى المقال الاول المغاربة الذين أقاموا ببورصة واتخذوها وطنا لهم . ومن هذا الجدول نعيد ذكرهم مرتبين ترتيبا زمنيا ، مع الملاحظة اننا رمزنا بالرقم الهندى ١ الى مقالنا الذى نشر بالعدد الاول من هذه المجلة (جانفى 1974 ، ص 45 ـ 51) ، والرقم ٢ الى هذا المقال الذى بين يدى القارىء : اما الارقام العربية فترمز الى الوثائق المنشورة ضمن المقالين المذكورين :

سنة 870 هـ/1466 م

محمد على الغربى (1/1)
محمد بن قاسم المغربى (٢/1)
عبد الله المغربى (٢/2)

سنة 885 هـ/1480 م

الخواجه الحاج عثمان بن قاسم المغربى (٢/6)

سنة 891 هـ/1486 م

الحاج محمد بن عبد الله التونسى المغربى (1/6)

سنة 877 هـ/1472 م

الحاج عثمان بن قاسم المغربى (1/2)
احمد بن محمد المغربى التاجورى (1/3)

سنة 889 هـ/1484 م

السيد محمد بن السيد محمد المغربى (٢/8)
حسن بن على المغربى (٢/9)
السيد حسن بن السيد محمد المغربى (٢/7،5 . 1/5)
محمد بن محمد المغربى الطرابلسى (1/4)
الحاج على بن دلال ياشى الاندلسى (1/4)

سنة 909 هـ/1504 م

الحاج عمر بن عمر المغربى (1/7)
سالم بن عبد الرحمن الجربوى المغربى (7 ، 8 ، 1/9 ، ٢/12) .
محمد بن محمد المغربى (8 ، 1/9)
السيد على بن السيد عبد الرحمن المغربى (1/9، ٢/12)
السيد على بن السيد عبد الله المغربى (٢/13)
أمير محمد بن أمير على المغربى (٢/14)
محمد بن سعيد العرب المغربى (٢/15)

سنة 884 هـ/1479 م

الحاج سعيد بن احمد المغربى (٢/3)

سنة 890 هـ/1485 م

الحاج احمد بن يوسف المغربى (٢/11)

سنة 918 هـ/1512 م

عبد الكريم التاجر العرب المغربى (٢/16)
الحاج قاسم بن عبد الرحمن العطار المغربى (٢/17)
محمد بن على العرب المغربى (٢/18)
يوسف بن احمد الرمال المغربى (٢/19)

تلك هى قائمة أسماء المغاربة الذين عثرنا عليهم فى الوثائق التى نشرناها فى مقالينا السابقين .

وقصدنا من ترتيبهم على هذا الوجه الكشف عن صلة القرابة التى قد توجد بين من ذكرتهم هذه الوثائق . واسماء الآباء قد تساعدنا على كشف هذه الصلة . فان كان قاسم ابا مشتركا لمحمد المذكور فى الوثيقة الاولى من المقال الثانى وللحاج عثمان المذكور فى الوثيقة الثانية من المقال الاول فقد يكونان اخوة وقد تكون العائلة قد نزحت الى بورصة فى العقد السادس من القرن الخامس عشر . ونستطيع ان نستنتج بسهولة ان السيد محمد والسيد حسن اللذين تذكرهما وثائق سنة 1484 اخوان ، فهما مشتركان من حيث اسم الاب اذ أن اسم أب كل منهما هو السيد محمد . ولعلهم ممن سكنوا بورصة فى ذلك العهد .

شخصياتهم

ليست سجلات محاكم الشرع بكتب تراجم ولا كتب طبقات ولكن هذا لا يمنع من أن نعرف أشياء لا يستهان بها عمن اقتضى تسجيلهم حتى من مجرد ذكر الاسماء فقط . فان القاضى كان اذا ما أراد أن يسجل أحدا لا يوقع ذكر اسمه فى أخطاء اذا ما دعا الامر احضاره لشهادة كانت أو لأداء دين أو سوى ذلك ، فانه كان يسجل الاسم مقترنا باسم الاب وينسب المرء أحيانا الى مهنته أو بلده أو أى شىء آخر يميزه عن غيره ، فيكنيه ، أو يلقبه، ويذكر انه حاج اذا كان كذلك ، او يقول عنه انه خواجة اذا كان تاجرا لا سيما السفار . ولا ينسى أن يقول عنه انه سيد وابن سيد ان كان شريفا . كما ان الدعوى التى كانت الوسيلة لتسجيل اسمه فى سجلات المحاكم تفيد بلا ريب أشياء أخرى عن أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية . غير أن هذه المعلومات مهما جلت تبقى ضئيلة اذا ما بقيت منفردة اذ التكرار يفيدنا أشياء قد لا تفيدها كتب التراجم .

ثم ان الذى دلنا على أن الاشخاص المذكورين فى القائمة كانوا مغاربة هو اهتمام القاضى بنسبتهم الى المغرب أى الى شمال افريقيا مما يلى مصر . فانه كان بعد ذكر الأب ينعت كل من أدرجناه فى القائمة بأنه مغربى وكان لا يقتصر على ذلك أحيانا ، بل يزيد على ذلك اسم مسقط رأسه فيقول « تاجورى » (١/3) أو « جربوى » (١/7_9) أو « من طرابليس » (١/4) أو ينسبه الى وطنه فيقول « تونسى » (١/6) أو « اندلسى » (١/4) ولكن يجب أن لا ننسى أن القاضى لم يقل عن الاندلسى انه مغربى.

وفى القائمة خمس أشخاص ذكر بأنهم كانوا حجاجا . وكان أحدهم « خواجه » حاجا . والخواجه فى عرف ذلك العصر هو التاجر والمعتبر من التجار . فالحاج عثمان بن قاسم المغربى لما كان وضعه الاجتماعى والمادى متواضعا سنة 1472 (١/2) اكتفى القاضى بقوله انه « حاج » فقط ، فلما تحسن وضعه ، كما تدل عليه الصفقة التى عقدها عام 1480 (٢/6) ذكره القاضى بزيادة « خواجه حاج ... » . وفى السجلات نماذج لأناس ذكر القاضى أنهم كانوا تجارا ولم يصفهم بكونهم خواجات . مثل التاجر عبد الكريم العرب المغربى (٢/16) .

وتضم القائمة اسم أمير وابن أمير مغربى لا نعرف عنه الا ما تذكره الوثيقة (٢/4) . كما أنها تضم أسماء أربعة أشراف من المغاربة عاشوا فى بورصة (13 ، 12 ، 8 ، 7 ، ٢/5 . ١/5) .

واذا شئنا أن نعرف أكثر من ذلك عن طبيعة أعمال هؤلاء المغاربة وعم
يحترفونه من مهن وتجارات ، كان من الضروري الرجوع الى نصوص الحج
التي تكشف عن ماهية الدعوى التي أقيمت بين يدى القاضي والتى كان
السبب في صدور الحجة . فالحاج عثمان بن قاسم المغربى كان يتاجر بالسكر
والحصالبان وهو نوع من البخور (2/١) والنيل والفلفل والقرنفل (6/٢)
واحمد التاجورى كان يتاجر بالفلفل أيضا (3/١) فهما من تجار التوابل
أما محمد الطرابلسي فانه كان قد أودع عند اندلسي يسكن انطاليا حديد
أنتجته مناجم حديد « صماقو » قرب « صوفيا » (4/١) فلعله كان يتاجر
بالحديد . ولعل السيد حسن كان يتاجر بالأخشاب (11/٢) . وجاء الحاج
احمد من سيروز باحمال نقلها له على سفينته احمد بن الياس الاعور ، لم ير
القاضي من داع لتسجيلها ، فلعلها كانت عبارة عن ذخائر فانها هى المادة
التى كانت تجلب منها (10/٢) فى الغالب . ويقدم القاضي لنا عبد الكريم
المغربى كتاجر ولكنه لا يشير لما كان يتعاطاه من أنواع التجارات ولا يكفي
نص الحجة (16/٢) لاستنتاج ذلك . غير انه ان كانت له علاقات تجارية
فى حياته مع « نجم الدين جلبى بن الخواجه سرور بن الخواجه مسرة الحلبى »
أمكننا ان نقول انه كان تاجر توابل . اذ ان الخواجه سرور كان من مشاهير
تجار بورصة فى الربع الاخير من القرن الخامس عشر . وفى السجلات الكثير
عن علاقته التجارية مع سوريا ومصر وايران والمغرب فضلا عن تجارة واسعة
فى أرجاء الدولة العثمانية . فيكون نجم الدين قد خلف والده فى أعماله .
أما عبد الكريم ، فتفيد الحجة أنه توفى وترك عند « نجم الدين » السابق
الذكر وديعة قبضها أمين بيت المال لعدم وجود وارث معروف له حين وفاته .
ويظهر ان المغاربة كانوا في الغالب تجار توابل أو يشغلون عطارين . وهذا
لا يمنع من أن نجد بينهم أناسا كيوسف بن أحمد يعمل كرمال (19/٢) .

طبيعة الوثائق

ان هذه الوثائق المعروضة للقراء مستخرجة من سجلات محكمة الشرع
فى بورصة . وهى بطبيعتها تعود ــ كما سبق أن قلناه ــ الى النوع الذى كان
يطلق عليه اسم « حجة » . والحجة هى الوثيقة التى يعطيها القاضى لطالبها
بعدما يستمع الى دعواه ويسجلها فى سجلاته . وتختلف الحجج عن قرارات
الحكام اليوم ، فهى لا تحوى ما نسميه اليوم بالـ « قرار » أو « القضاء » .
ويصعب أن نعرف من نصوص الحجج ماذا قضى به القاضى . فالحجة لا
تتجاوز تثبيت الوضع سواء كان فى باب المعاملات أو فى مسائل تتعلق
بالجزاء والقصاص . ووثائقنا فى هذا الصدد كلها فى « باب المعاملات » ولا
يتجاوز وضع القاضى فى تسجيلها وضع « كاتب العدل » اليوم .

واذا شئنا أن نصنف هذه الوثائق ونبوبها حسب أبواب كتب الفقه
وجدنا ان منها ما يعود لباب « الوديعة » (وثيقة 1 ، 3 ، 12 ، 16) والاعتاق
(2 ، 8 ، 17) والوكالة (4) والصلح والحوالة (5) والدين (6 ، 10 ، 18)
والابراء (7 ، 9 ، 14 ، 15) والوصية (13) وكراء السفينة (11) وما الى
ذلك . وقد تخص الحجة الواحدة عدة مسائل من دين وكفالة وحوالة
وهبة (5) .

ان دراسة هذه الوثائق من الوجهة الفقهية أو القانونية المحضة لا تخلو
من فائدة . ولكن للباحث فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى عناية مصروفة
لوجوه اخرى غير الوجه القانونى البحت . فهو يريد ان يعرف من خلال سطور

الوثائق وطي عباراتها وضع العائلة واى دور كان للرقيق فيها كخادم وكفرد من العائلة ، ويستقصى مسائل البيوع والديون لمعرفة التيارات التجارية وأهميتها ، ومن كان من الأمم والشعوب يشارك فيها ، وما نسبة مساهمة كل منهم فيها، وأن يعرف ماذا كان يعمله الناس أمام المانع الديني. مثلا ، هل كانوا يمتنعون عن المعاملات ذات الفائدة الرباوية أم كانوا يدفعونها اذا استدانوا مستترين وراء حيلة شرعية . وما كان مقدار « الربح » عندئذ ؟

الرقيق

لنتأمل مسألة الرقيق أولا فان من بين وثائقنا أربعة كانت تخصها اصالة بصورة مباشرة وواحدة بصورة غير مباشرة . فالوثيقة الثانية تتحدث عن مكاتبة مولى لعبده . وهى تهمنا من وجهتين : الاولى اقتصادية تاريخية وربما اجتماعية بحتة هى مسألة الرقيق بصورة عامة ، أى الحل الذى وجده الناس أمام مشكلة وقت لم تكن الماكنة موجودة لتخفف من أعباء الانسان . والثانية وجهة نظر عرقية ، فان العبد المكاتب من أصل مغربى . والمعروف أن المولود فى الاسلام لا يسترق فى دار الاسلام . فهل كان هذا العبد غير مسلم عندما استرق ؟ أم استرقه حربى ثم اشتراه مسلم وبقى فى خدمته حتى كاتبه ؟ سؤالان لا يسمح النص بايضاحهما .

كان القاضى يحتاج فى الدعاوى التى كانت تخص الرقيق لتعريفه لعدم وجود التصوير حينئذ . وكانوا يكتفون بخمس خصائص هى : اللون ، ولون العينين واقتران أو افتراق الحاجبين والقامة والمنشأ أو الاصل ، أى ان العبد من أى قوم هو ؟ وقد يذكر الصفة والموصوف أو يكتفى بالصفة فقط . فالعبد الذى قال عنه : انه من أصل مغربى أسود (اللون) ، أسود (العينين) ، أبلج أى أفرق (الحاجبين) ، طويل (القامة) . لم تذكر الحجة الا أنه أسود أبلج أسود طويل وتركت الضمير مستترا .

والحجة تفيد أن مولى هذا العبد المدعو طورسون ، وهو اسم تركى يعنى (ليبقى أو ليعمر) ، وعد عبده هذا المدعو عبد الله بعتقه اذا خدمه أربعة اعوام متوالية . وهذا ما كانت تسميه كتب الفقه بالـ « مكاتبة » . وقد يكون الوعد بالتحرير بناء على أداء مبلغ ما أو صنع مقدار معين من الاشياء كنسج عدة قطع من الأقمشة مثلا . وبالمقارنة بين قيمة العبد وقيمة ما يصنعه يمكن أن نحصل على البعض من العناصر التى يمكن أن تقدر بها قيمة العبد العامل . وقيمته فى ذلك هى قيمة خدمته او قيمة طاقته البشرية . وقد يحسب السيد فائدة رأس مال العبد عندما يكاتبه على خدمة أو أداء مبلغ ما . وقد أشرنا في المقال الاول الى أن بورصة كانت وما تزال الى اليوم مدينة صناعية ، وقد رأينا فى بعض السجلات أن بعض أصحاب مصانع النسيج كانوا يشترون عبيدا يكاتبونهم على نسج مقدار معين من الاقمشة ثم يطلقونهم عند اتمامها وهكذا يشترون آخرين غيرهم يكاتبونهم أيضا لنفس الغرض . فيجدون فيهم عمالا مجدين لا يتوقع منهم كسل ولا فتور اذ اطلاقهم موقوف على انجاز شرط المكاتبة .

وتنعكس الآية فى الوثائق الاخرى التي تتعلق بالرقيق فان المولى فى كل منها مغربى والعبيد من أجناس مختلفة . فالعبد الذى اعتقه « السيد محمد ... المغربى الخليلى » الذى كان يدعى يوسف ، « ارناودى » (يريد ان يقول البانى) الاصل ، وقد اطلقه « حسبة لله العظيم » أى من غير مقابل . فربما طالت خدمته اذ الحجة تذكر أنه كان ملتحيا . وعتق الشيخ مسألة

تحتاج الى التأمل فقد تكون وسيلة لتركه فى البؤس والشحاذة فى وقت لا يقوى فيه على العمل ....

مسألة أخرى ما دمنا بصدد الحديث على المغاربة ، ترى ما المراد بالنسبة الى الخليل ؟ فان القاضى أشار بان المعتق « خليلى » .

وتتحدث الحجة 17 عن « الحاج قاسم .. العطار المغربى » الذى اتخذ بورصة موطنا ، فانه أعتق أمته « فرحناز الجركزية » (الجركسية) . وتفيد الحجة أيضا أنها كانت أم ولد للمعتق . واستقصاء وضع أم الولد بين الاماء بحث شيق فى التاريخ الاجتماعى وخاصة ما يتعلق بالعائلة .

وفى بحثنا هذا لا نستطيع أن نتناول هذا الموضوع باسهاب ولذا فاننا نكتفى بالماع الى انه كان رجال يشترون اماء للمتعة او الزيجة . كما كان نسوة يشترين عبيدا لنفس الغرض، فقد وجدنا فى حجج الطلاق أمثلة كثيرة تصلح للمقارنة بين العائلات المتولدة من أصل حر والعائلات الناشئة من أصل رقيق من حيث الاستقرار والدوام والوفاق . وان التسرى (الزواج بالاماء) الذى أبيح من أجل بناء الاسر ترى ماذا كانت نتائجه ؟ وفيه أيضا مزج لأقوام مختلفة .

وتفيد وثيقة أخرى ان جارية من أصل « روسى » اشتراها مغربى مقيم فى بورصة ايضا ، وكان الثمن « 90 دينارا اشرفيا ذهبيا وزنيا » مؤجلا الى شهرين .

ويلاحظ أن الدينار المذكور هو « الدينار المملوكى » فانه كان المتداول فى ذلك العهد الى جانب « الدينار العثمانى » و « الدنانير الاوربية » بكل حرية . ونفهم من تكرر ذكره فى وثائق ذلك العصر انه كان مرغوبا فيه ، وكان تداوله فى هذه السنة بسعر 45 الى 47 « أقجة » (أى درهم فضى عثمانى) فتكون قيمة الجارية تتراوح بين 4.050 و 4.230 أقجة . وبما أن قيمة العبد كانت تتراوح بين 2.500 و 5.000 اقجة فالجارية من حيث القيمة أعلى من الوسط ولكنها ليست من النادر اذ ان المرغوب يفوق 7.000 درهم من حيث القيمة .

ونشير الى أن الرقيق فى ذلك العهد كان أكثرهم من أقوام « شبه جزيرة البلقان » أى جنوب غربى أوربا ، اذ ما زالت حتى وقت استتباب الحكم العثمانى فيها دار حرب يؤتى منها بالاسرى وسبايا الحرب . كما أن المماليك من روسيا كانوا يمثلون نسبة لا بأس بها فى مقتبل القرن السادس عشر .

وفى المجموعة وثيقة أخرى (رقم 15) تتكلم عن جارية زعم مولاها انها سلمت ما سرقته من كيسه الى « الحاجة حفصة » ولم يستطع المولى وهو من أصل مغربى اثبات مدعاه فبرأ الحاكم ساحتها .

مساهمة المغاربة فى تجارة البحر الابيض :

ان هذه الوثائق المعروضة للقراء مهما كان عددها قليلا تكشف عن مشاركة المغاربة فى تجارة البحر الابيض المتوسط . فمنهم من اختار الغربة واستوطن كغيره من المشارقة بورصة واكتفى بتجارة لها طابع محلى ، ومنهم من بقى على علاقاته مع المغرب والأندلس . فأقدم وثيقة فى المجموعة (وثيقة رقم 1) تقدم لنا مغربيا ، ان لم نخطىء فى تعليل الكلمة كان ولا شك ممن يتاجر بين « غرناطة » وتركيا . فقد سجل القاضى ان « محمد بن قاسم المغربى » قد توفى فى « غرناته » ونحسب انه صحف بذلك (غرناطة) . فان الكاتب لم ينقط النون كما انه كتب الطاء/تاء .

ولا يستغرب أن يقيم أحد المغاربة تجارة مع غرناطة فى 1466 ، لانها فى ذلك التاريخ ما زالت ضمن دور الاسلام . وعلى الرغم من سكوت الحجة عن نوع هذه التجارة فقد نصت على وفاته هناك وأضافت أنه ترك وديعة لورثته عند « محمد بن موسى العطار » . وقد يكون المودع كالأمين المستودع « عطارا » يتاجر بالتوابل كباقى العطارين . ونحن نذهب الى أن الامين هو الذى يحفظ الوديعة من سكان بورصة . ولو كان غير ذلك سوف يضطر لكتابة « نقل شهادة » أو « كتاب قاض الى قاض » على نحو ما كانت تسميه كتب « أدب القاضى » وفى الوثيقة الثالثة نموذج منه .

وكما كشفت لنا الوثيقة الاولى عن مغربى يعمل بين « غرناطة » وبورصة فان الوثيقة الثالثة تفيد بأن الحاج « سعيد بن أحمد المغربى » كان قد بلغ فى احد أسفاره « انقرة » اذ شهد بمحضر من قاضى بورصة أن « نور الدين الوالائى » قد اودع فى « انقرة » عند احد سكان « انقرة » قصديرا او عباءا احمر . ولا بد ان يكون المودع والمغربى المذكور والشاهد الآخر وهو « الحاج يوسف الحلبى » فى قافلة واحدة لما كانوا فى انقرة . والوالائى هو صانع « الوالا » وهو نسيج من حرير رفيع كالموسلين ، اما « العبائى » فهو قماش من صوف . ونلفت نظر القارىء الى ان كاتب المحكمة قد صحف كلمة « قصدير » فكتبها حسب ما تلفظها العامة فى المشرق حتى اليوم « قزدير » . ولم يفت الكاتب ان يعطى معناها بالتركية وهو « قلغاى » ويتلفظ بها بحذف الغين « قلاى » .

ويوكل فى الحجة الرابعة « مصرى » ، « مغربيا » لتحصيل دين له من ثمن فرس بلغ 600 درهم من أحد سكان بورصة . وقد يكون جميعهم فى بورصة وليس من اليسير القول ان المغربى كان فى مصر فقد وجه الموكل الوكالة للمغربى فى نفس الجلسة فى المحكمة . على اية حال نستطيع مقايسة قيمة الفرس بقيمة الجارية المار ذكرها فى الوثيقة الاخيرة ، فقيمتها قيمة سبع أفراس .

وفى الحجة السادسة صفقة توابل من فلفل وقرنفل وصبغ هو النيل اشتراها « مغربى » هو « الحاج عثمان » ومقدسى (او قدسى على وفق تسجيل كاتب المحكمة) هو « الحاج حسين بن حسان » من « الخواجه عمر جلبى » بلغت قيمتها 47.500 درهم . وقد كفل المشترين « الحاج بكر ... القونصى » الى أن الثمن مؤجل الى شهرين . والكفيل من التجار المعروفين من أصل سورى قد استوطن بورصة . وهذه الحجة تفيد مدى مساهمة المغاربة فى تجارة التوابل .

وتفيد الحجة رقم 9 ان حسن بن على المغربى كان يتاجر بالشب والألبسة وشىء آخر لم تتسن قراءته . وقد باع هذه الاشياء الى أحد سكان بورصة ولكنه أبرأ ذمته اثر خلاف نشب بينهما بعد أن قبض منه مائة درهم . والشب والنيل من المواد الخام الهامة فى صناعة النسيج للصبغ .

وتتعرض الوثيقة رقم 11 لمغربى ربما كان يقوم بتجارة محلية بحرية بين سيروز وهى بلدة فى مقدونيا فى اليونان حاليا تدعى اليوم Serraï أو Serrès والحجة لا تفصح عن نوع المواد التى شحنها « الحاج أحمد بن يوسف » على ظهر سفينة « الرئيس أحمد بن الياس الاعور » من « سيروز » الى ميناء بورصة على ساحل مرمرة وهى « مودانيا » . ولكن يجب أن لا ننسى أن « سيروز » ليست بمدينة ساحلية ، ولعل الأحمال نقلت من ميناء هذه البلدة

على ساحل بحر ايجه أو من البلدة رأسا اذ هي واقعة على نهر « ستروما » اذا كان هذا النهر وقتئذ صالحا للملاحة .

الفائدة المترتبة من الاستقراض :

ما زال بعض الناس يملك أكثر من البعض أموالا فلا بد ان يستقرض البعض من البعض عند الحاجة ، لضرورة كانت أو لعمل أو تجارة . وقل من يتخلى عن ماله من غير نفع . وبما ان الشريعة حرمت الربا فقد وجب العثور على حل شرعي لهذا المشكل . وفي الوثيقة رقم 10 مثال ذلك ، فقد استقرض « ياني بن ديمتري » وهو ذمي من أهل مدينة بورصة ، من اسحاق معتق لأحد قضاتها هو « مولانا ولدان » 1.200 درهم ، 1.000 درهم منه من القرض والباقي من ثمن « الثوب المخيط من المغربي » . وما المائتا درهم الباقيتان الا ربح أو فائدة الالف درهم المستقرض لمدة سنة . أي أن الربح كان (20 %). وهو مقدار فاحش اذ أن أموال الاوقاف كانت تستربح بـ (10 %) . وسردنا لهذه الحجة المتعلقة بالمغرب هو لصلتها بنوع من النسيج المغربي مر ذكره أركانه ربح لرأس المال المستقرض . اذ كان المستقرض يضطر اذا استدان ان يشري من المقرض شيئا تعادل قيمته ربح رأس المال وكان يهبه اياه بعدها اذا كان شيئا قيما او يبقى معه اذا كان لا يستاهل ذلك .

ونحسب أن بعض المغاربة كانوا يوظفون أموالهم فيقرضوها للمحتاج بالشروط الجارية في البلد . وان لم نعثر على مثال صريح في وثائقنا هذه ، فانه لا يستبعد ان نرى في « السيد حسن ... المغربي » احد هؤلاء الذين يقرضون اموالهم حيث كان له عند احد سكان « ايته كول » وهي من نواحي بورصة تبعد عنها 45 كيلومترا ، 1.500 درهم ، وكان لهذا عند المدين المذكور 2.200 درهم من ثمن الاخشاب وقد تقاصصا وابرأ كل منهما ذمة الآخر (راجع وثيقة رقم 7) . والفائدة وان كانت مرتفعة ، فان الدفع كان متعسرا احيانا . ففي بعض الوثائق ما يفيد ان القرض خلي من الفائدة . كان اذا حصل على شيء من رأس ماله يرى نفسه سعيدا . « فعلي بن كمال » يرضى من « أمير محمد المغربي » بـ 200 درهم عوضا عن 800 درهم يتخلى له عن الفرق (وثيقة رقم 14) . و « الحاج بيرام » يصالح « السيد حسن » على 400 درهم ويتخلى له 500 درهم . وهذان المثالان يدلان على ان ليس كل المغاربة الذين قدموا لبورصة بتجار وأغنياء وصناع ...

خليل الساحلي

كلية الاقتصاد ـ جامعة استنابول

الوثيقة رقم 1 :

مات الحاج محمد بن قاسم المغربي في محروسة غرناته وترك مبلغ ألف واثنى عشر درهما للورثة ووضع عند الامين المدعو محمد بن الحاج موسى العطار

(شهود الحال) الحاج علي بن محمد بن سالم وعلي بن علي بن علي

بورصة ، سجل 199 أ ورق 118 ب 8 جمادى الآخرة سنة 870 (26 كانون الثاني / جانفي 1466)

الوثيقة رقم 2 :

أقر طورسون بن موسى بانه كاتب مملوكه المدعو عبد الله (المحلى) بأنه أسود أبلج أسود طويل مغربي الاصل على خدمة أربعة أعوام

(شهود) الحاج حسن بن حسين فقيه وحمزة عتيق مولانا بايزيد جلبى وموسى بن حسين

بورصة ، السجل السابق ، ورق 133 أ يوم الثلاثاء 3 رجب سنة 870 (19 شباط/فيفرى 1466)

الوثيقة رقم 3 :

هذا ذكر ما شهد الحاج يوسف بن الحاج أحمد الحلبى والحاج سعيد بن احمد المغربى بان حامل الكتاب الخواجه نور الدين حمزة بن على الوالائى قد كان اودع عند الرجل المدعو على باشا بن طورمش القلانسى أبوه المتوفى بمحروسة أنقرة المتمكن فى حياته فى محلة اويلة حمامى (Ogle Hammami) الثالثة (هكذا) من من القذدير (القصدير) المسمى بالتركى بـ « قلغاى » وعشرة (كذا) قطع من العبائي الاحمر الحلبى مات هو وبقى عنده الودائع المذكورة شهادة صحيحة شرعية فأنهى الى قاضى أنقرة المحروسة .

بورصة ، سجل رقم 3 أ ورق رقم 206 ب ، 4 شوال سنة 884 (19 كانون الاول/ديسمبر 1479)

الوثيقة رقم 4 :

أقر واعترف دولت خواجه بن عبد الله محرر الخواجه محمد من (محلة) كهنه كوزسوزلر (Köhne Gözüler) بأن عليه لحاج أحمد بن الحاج على المصرى مبلغ ستمائة درهم فضى رائج من ثمن الفرس المقبوض ثم وكل حامل الكتاب الحاج محمد بن محمد المغربى بقبض حقه المقر به وطلبه وبكل ما يتوقف عليه توكيلا صحيحا شرعيا مقبولا من قبله

بورصة ، سجل رقم 3 أ ورق 261 ب الاربعاء 10 محرم 885 (22 اذار/مارس 1480)

الوثيقة رقم 5 :

هذا ذكر ما أقر واعترف الحاج بيرام بن الحاج خضر بأنه قد صالح مع حامل الكتاب السيد حسن بن السيد محمد المغربى وهو صالح معه عن جميع دعواه (دعاويه) عليه خصوصا عن دعوى مبلغ تسعمائة درهم على مبلغ اربعمائة درهم فضى رائج مسكوك سلطان محمد خانى خلد ملكه مؤجلا من تاريخ الكتاب الى شهر واحد مصالحة صحيحة شرعية ، اقرارا صحيحا شرعيا مصدقا من قبله ثم كفل بالمبلغ المذكور أورنوس بن محمد كفالة صحيحة شرعية مشتملة على الأمر والقبول ثم أحال الحاج بيرام المذكور حمزة بن مزيد بالمبلغ المذكور على الكفيل المذكور وهو قبل الحوالة

(شهود) الحاج حسام بن بولاد وعلى بالى بن مصطفى ومصطفى بن شاهين واحمد جلبى بن حمزة ومحمد بن حصاربكى

بورصة ، سجل رقم 3 أ ورق رقم 298 ب الاحد 18 ربيع الاول 885 (28 ايار/ماى 1480)

الوثيقة رقم 6 :

أقر الحاج حسين بن حسان القدسى والخواجه الحاج عثمان بن قاسم المغربى بان عليهما وفى ذمتهما للخواجه عمر جلبى بن الخواجه على مبلغ سبع واربعين (كذا) الف درهم وخمسمائة درهم (47.500) درهم من ثمن النيل والفلفل والقرنفل مؤجلا من غرة شهر رمضان الى ستة أشهر متوالية وكفل كل واحد منهما بما على ذمة الآخر ثم كفل الخواجه الحاج بكر بن الخواجه

عثمان القونصى بالمبلغ المذكور كفالة صحيحة شرعية مشتملة على الام
والقبول

(شهود) الحاج تكرى وردى بن عبد الله والحاج عبد الله بن الحاج محم
ومحمد بن الحاج محمود ومحمد بن يخشى وكاتب الحروف هبة الله الفقير

بورصة ، سجل رقم 3 أ ورق رقم 366 أ الخميس 7 شعبان 885
(12 اوكتوبر 1480)

الوثيقة رقم 7 :

شهد الحاج خير الدين بن قاسم ومولانا لطفى بن قولاغوز (Kulagüz
عقيب الاستشهاد والدعوى الصادرة عن حامل (هذا) الكتاب اسماعيل بن
طورمش من كيكلوبابا (Geyüklubaba) بان المدعى المذكور قد ابرأ ذم
الرجل المدعو السيد حسن بن السيد محمد المغربى عن جميع الدعاوى
والمطالبات عموما ، خصوصا عن دعوى مبلغ الفى ومائتى درهم وستين
درهما من ثمن الخشب المقبوض وان سيد حسن المذكور ابرأ أيضا ذم
المدعى المزبور (كذا) عن مبلغ الف درهم وخمسمائة درهم من القرض
شهادة صحيحة شرعية فأنهى الى الحاكم بأينه كول (Inegöl)

(شهود) اينه بكى بن تنكريورمش والحاج يحيى بن (–)

بورصة ، سجل رقم 4 أ ورق رقم 146 ب ، الاحد 24 جمادى الاخر 889
(1 تموز/جويلية 1484)

الوثيقة رقم 8 :

أقر سيد محمد بن سيد محمد المغربى الخليلى بأنه أعتق وحرر عبد
المدعو يوسف بن عبد الله الأصفر الأزرق الأبلج الملتحى المتوسط الق
الارناودى الاصل حسبة لله العظيم .

(شهود) بالى بن عبد الله وبالى بن عبد الله وأحمد بن سليمان ويا
أحمد بن بيرى والحاج طغان الخباز

بورصة ، سجل رقم 4 أ ورق رقم 173 أ الاحد 30 رجب 889 (23
اغستوس/اوت 1484)

الوثيقة رقم 9 :

شهد محمد بن بستان وبيرى بن يوسف الأزرى أبوه بمحضر من حسن
ابن على المغربى عقيب الاشهاد والدعوى الصادرة عن سفر شاه بن الحاج بيرا
بأن حسن المزبور قد أبرأ ذمة المدعى المزبور عن جميع الدعاوى والمطالبات
عموما (و) خصوصا عن دعوى الشب والقالب (؟) والألبسة وغيرها من
الدراهم والدنانير بعدما قبض منه مبلغ مائة درهم فضى ابراء صحيحا
شرعيا قاطعا للنزاع .

(شهود) الحاج اسحاق بن عبد الله والخواجه الحاج مصطفى بن الحاج
خوشقدم وشاهدا الاصل

بورصة ، سجل رقم 4 أ ورق 236 ب الاثنين 11 ذى القعدة 889
(30 نوفمبر 1484)

الوثيقة رقم 10 :

أقر يانى بن ديمترى من محلة « قياباشى » (Kayabaşı) بأن عليه وفى
ذمته لحامل الكتاب هذا الحاج اسحاق بن عبد الله عتيق افتخار الأفاضل

مولانا ولدان افندى دام فضله مبلغ الف ومائتين درهم فضى سلطان بايزيد خانى خلد ملكه ألفه من القرض ومأتاه من ثمن الثوب المخيط من المغربى دينا صحيحا شرعيا واجب الاداء مؤجلا من غرة رمضان لسنة تسع وثمانين وثمانمائة الى تمام سنة كاملة وكفل بالمبلغ المذكور يوركى بن ميخال من الدكان الورقى بأمر المقر المذكور اقرارا صحيحا شرعيا مصدقا من قبل المقر له المذكور

(شهود) الحاج سنان بن عبد الله ومولانا كمال بن الياس القسام وأحمد بن سليمان ويار احمد ابن بيرى وكاتب الحروف محمد الفقير

بورصة سجل رقم 4 أ ورق رقم 239 ب ، الخميس 14 ذى القعدة 889 (3 ديسمبر 1484)

الوثيقة رقم 11 :

سبب تحرير حروف اولدركه

أعور كميجى أحمد بن الياس شريعت محفلنده اقرار ايدوب ايتدى كه « اشبو حامل حجت حاجى احمد بن يوسف المغربى نك سيروزدن مودانيه يه يوكن كتورمش ايدم ، كمى اجرتن الوب بى قصور قبض ايلدم اجرتدن وقرضدن وغيرندن بوجه من الوجوه دعوام ونزاعم قالمدى » ديدى أول داخى تصديق ايلدى

(شهود) رئيس الحاج محمد بن على والحاج حامد بن محمد ومولانا مرسل بن رمضان واحمد بن سليمان

وهذه ترجمتها :

الداعى الى تحريرها هو انه حضر مجلس الشرع الشريف أحمد بن الياس الاعور ، صاحب السفينة وأقر واعترف بانه كان قد نقل من سيروز (Siroz) فى مقدونيا تابعة لليونان حاليا) الى مودانيا (Mudanya) ميناء مدينة بورصة على الساحل الشرقى لبحر مرمرة) على ظهر سفينته للحاج أحمد بن يوسف المغربى احمالا وأنه قد أخذ أجرة نقلها من يده كاملة من غير نقصان وأنه لم يبق له عليه من أجرة السفينة ولا من القرض ولا من غير ذلك شىء وانه لا دعوى ولا نزاع له معه بوجه من الوجوه وسبب من الاسباب وصدقه المقر له الشهود ....

بورصة سجل رقم 4 أ ورق رقم 397 ب الاربعاء 11 رمضان 890 (21 سبتمبر 1485)

الوثيقة رقم 12 :

أقر المدعو السيد على بن السيد عبد الرحمن (كذا) المغربى بأن المدعو الحاج سالم بن عبد الرحمن (كذا) المغربى كان أودع عنده ثلاثة آلاف درهم ثم أقر صاحب المال بأنه وهب له حسبة لله ألف درهم فبقى عنده ألفا درهم سعدى الامين

(شهود) مصطفى جلبى بن محمد المؤذن والحاج خضر بن بولاد ومولانا فتصادقا

بورصة ، سجل رقم 19 أ ورق رقم 70 ب ، الاثنين 25 رمضان 909 (12 اذار/مارس 1504)

الوثيقة رقم 13 :

شهد للنقل حسين بن حسين وحسين بن عبد الله عقيب الاستشهاد الشرعي والدعوى الصادرة (عن) السيد على بن السيد عبد الله المغربى بأن الاستاذ عبد العالى بن بولاد شاه المعمار وصى المرحوم عبد السلام المتوفى فى قسنطينة وكل المدعى المذكور (اه)

(شهود) مصطفى بن محمود واسكندر بن عبد الله وداود بن عبد الله

بورصة ، سجل رقم 199 أ ورق رقم 205 ب الجمعة 1 ذى الحجة 895 (16 اكتوبر 1490)

الوثيقة رقم 14 :

أقر المدعو على بن كمال الحريرى البروسوى (كذا) من محلة ميدانجق (Meydancik) بأنه قد ابرأ ذمة المدعو أمير محمد بن أمير على المغربى عن جميع الدعاوى والمطالبات والأيمان والمخاصمات عموما وخصوصا عن دعوى مبلغ ثمانمائة درهم من القرض وأنه قبض منه بمقابلة الابراء المزبور مآتى درهم فضى رايج الوقت (كذا)

(شهود) الحاج حسن بن عبد الرحمن وسيدى أحمد بن على وقره كوز (Karagöz) بن عبد الله وأحمد بن خضر المحضر

بورصة ، سجل رقم 19 أ ورق رقم 93 أ الاحد 22 شوال 909 (8 نيسان/افريل 1504)

الوثيقة رقم 15 :

ادعى محمد بن سعيد العرب المغربى على المدعوة الحاجة حفصة بنت الحاج اياس بأن جاريته المدعوة طوطى بنت عبد الله قد أخذت بغير اذنه من كيسته مقدار من الدراهم وسلمته اليك فبعد المقابلة بالانكار طولب منه البينة لاثبات ما قاله فلما عجز عن اقامتها حلفت هى انها ما أخذت من يد جاريته شيئا فحكم ببراءة ذمتها من الدعوى المزبورة (كذا)

(شهود) نصوح بن محمود وقاسم بن عبد الله ومصطفى جلبى بن محمد ويعقوب عبد الله

بورصة ، سجل رقم 19 أ ورق رقم 102 أ الاحد 29 شوال 909 (15 نيسان/افريل 1504)

الوثيقة رقم 16 :

أقر خير الدين بك بن عبد الله السلاحى الامين سابقا على بيت المال الواقع فى قضاء بروسة (كذا) المحروسة بأن عبد الكريم بن (ـ) التاجر العرب المغربى المتوفى فى بروسة المحروسة فى خان سوق الملح فى محرم سنة سبع عشرة وتسعمائة كان أودع فى حال حيوته (كذا) وصحته عند خلف الأعيان الخواجه نجم الدين جلبى بن المرحوم الخواجه سرور بن مسرة الحلبى ثم البروسوى مبلغ تسعمائة درهم فضى رايج الوقت وهو الآن قد أخذ وقبض من يد المودع المذكور جميع المبلغ الوديعة المذكورة ولم يبق عنده من المبلغ المذكور شيء مصدقا من قبل الخواجه نجم الدين المذكور تصديقا وجاها .

(شهود) حسن جلبى رئيس المحضرين والخواجه على بن فاضل وشعبان التاجر ومحرر الحروف

بورصة ، سجل رقم 20 أ صحيفة رقم 239 الاحـد 10 محرم 918 (28 آذار/مارس 1512)

الوثيقـة رقـم 17 :

أقر الحاج قاسم بن عبد الرحمن العطـار المغربى ثم البروسوى الساكن فى محلة سوق الملح بأنه اعتق وحرر جاريته ومملوكته ومستولدته المدعـوة ...رحناز بنت عبد الله الحنطية اللون الفرقاء الشهلاء القصيرة القامة الجركزية الاصل اعتاقا وتحريرا شرعيين حسبة لله اقرارا مصدقـا من قبلها تصديقـا وجاها وشفاها فصارت حرة كسائر الحرائر الأصليات

(شهود) حسام بن عبد الله المحرر ومراد بن عبد الله المحضر وعلى بـن مصطفى المحضر وحمزة بن الحاج هابل البقال والسيد محمد بن على

بورصة ، سجل رقم 20 أ ، صحيفة رقم 351 ، السبت 11 ربيع الآخـر 918 (26 حزيران/جوان 1512)

الوثيقـة رقـم 18 :

شهد مولانا السيد أبو القاسم بن السيد أحمد الامام فى الجامع الكبير والسـيد على بن السيد عبد الرحمن الخباز بمحضر من بيرى بن شمس العجم ...عقب الدعوى والاستشهاد الشرعيين الصادريـن عن المدعو محمد بـن ...العرب المغربى بأن بيري المذكور قد أقر عندهما واعترف لديهما بأن عليه للمدعى المذكور مبلغ أربعة وستين اشرفيا ذهبيا وزينا دينا صحيحا واجب الاداء شهادة صحيحة شرعية مقبولة بعدالتعديل الشرعى فحكم بموجب شهادتهما حكما شرعيا ثم كفل محمد بن أحمد البروسوى من محلة انبيـا اوغلى بنفسه من تاريخه الى تمام شهرين على أن لم يؤد اليه المبلغ المذكور الى تمام الشهرين المذكورين يؤديه الكفيل المذكور .

(شهود) مصطفى بن حسن ، وحمـزة بن سليمان ، ومحرر الحـروف محمد بن اويس)

بورصة ، سجل رقم 20 أ صحيفة رقم 385 الخميس 7 جمادى الاولى 918 (... تموز/جويلية 1512)

الوثيقـة رقـم 19 :

أقر يوسف بن أحمد الرمال المغربى ثم البروسوى من محلة دايه خاتون بأن عليه وفى ذمته لشيخى بن الحاج مصطفى مبلـغ تسعين اشرفيا ذهبيـا ...من ثمن الجارية المدعوة سروناز بنت عبد الله الروسية الأصل مؤجلا من تاريخه الى تمام شهر اقرارا مصدقا من قبل المقر له المذكور تصديقا وجاهـا وشفاهـا .

(شهـود) عزيز بن ابراهيم الكرباسى وحمزة بن الحاج عوض وأحمد بن الحاج على واحمد بن محمود المحضر

بورصة ، سجل رقـم 20 أ ، صحيفة رقم 589 السبت 18 رمضان 918 (... نوفمبر 1512)

سياسة فرنسا الاسلامية

بتونس من 1881 - 1918 :

بحث تمهيدي

[illegible]

تعتمد كثير من القوى الحاكمة فى دعم حكمها على سياسة استخدام قطاعات حيوية من المجتمع . والسياسة التى انتهجتها فرنسا ، حيال القبائل والبربر والطرق الصوفية ، فى كل من المغرب الاقصى والجزائر معروفة ، غير أن السياسة الاسلامية التى اتبعتها فرنسا فى تونس مجهولة . ذلك أن المخطط الاستعمارى مر بثلاث مراحل .

كانت المرحلة الاولى (من بداية الحماية الى 1890 تقريبا) ترتبط بالمقيم العام بول كامبون (Paul Cambon) الذى كان يتصرف طبقا لتصوراته عن التقوى الاسلامية . مثلا ، كان كامبون يخشى الطريقة السنوسية لتصوره انها تتعاون مع السلطان العثمانى ضمن مخطط المعروف « بالجامعة الاسلامية » واعتبر كامبون هذه الفرق وراء مقاومة القبائل للاحتلال الفرنسى كذلك اعتقد كامبون أن الطرق القادرية والرحمانية والتيجانية ، سوف تسلك ازاء نظام الحكم الفرنسى فى تونس نفس سلوكها فى الجزائر ، حيث اعترضت الطريقتان القادرية والرحمانية على الاحتلال الفرنسى ، بينما أيدته الطريقة التيجانية . فاستغل كامبون سلطة تعيين ألعوبته الباى لكى يقلل من شأن اعتراض العلماء على التنظيمات الفرنسية فى تونس .

غير أن خلفاء كامبون نبذوا اعتقاداته وتحولوا عن بعض أساليبه فى أثناء المرحلة الثانية التى تبدأ عام 1890 تقريبا . اذ حاول رينى ميلى (René Millet) ، بصفة خاصة ، أن يشجع جماعة المسلمين المستنيرين من خريجى المدارس الفرنسية ، الذين كانوا يدعون الى التوفيق بين الاسلام والحضارة الفرنسية ، اعتمد عليهم حتى يجعل منهم سند الحماية . الا أن اصلاحات ميلى (مثل محاولته ادخال علوم غير دينية فى برنامج جامع الزيتونة التعليمى سنة 1891) أثارت ضده جماعة العلماء المحافظين ، الذين اتضح أن نفوذهم ، فى ذلك الوقت ، كان أقوى من نفوذ التقدميين. بل سرعان ما تنكر بعض التقدميين : (حزب تونس الفتاة) لادارة الحماية مما جعل خلفاء كامبون يتحولون عن مواقفه من الطرق الصوفية ولم يعودوا يعتقدون أن الطرق التيجانية هى سند فرنسا فى تونس ، وكذلك كفوا عن الاعتقاد بأن الطرق الرحمانية والقادرية وحتى السنوسية تهدد وجود الاحتلال الفرنسى . والواقع دعا الكاتب العام روى (Roy) سنة 1896 الى سياسة الوفاق مع الطريقة القادرية ، لان الشيخ قدور الميزونى القادر كان يرحب بالجنود الفرنسيين فى مدينة الكاف سنة 1881 . ولكن على النقيض من ذلك بدأ المقيمون العامون يتزايد تجاهلهم للطرق الصوفية نتيجة لتضاؤل نفوذهم نسبيا فى المجتمع التونسى . لقد استمر قلق الفرنسيين ازاء حركة الجامعة الاسلامية ، غير أنهم بعد سنة 1907 لم يعودوا يعتبرون القبائل الصحراوية عملاء الجامعة الاسلامية ، بل حزب تونس الفتاة . وكان مما يثير فزع الفرنسيين فى نفس الوقت محاولة المانيا استغلال تحالفها مع السلطان العثمانى لكى تصور نفسها كصديقة للدين الاسلامى ، أما فرنسا فهى عدوة الاسلام والمسلمين .

بدأت المرحلة الثالثة قبل الحرب العالمية الاولى ، عندما ادركت سلطات الحماية ان سياسة رينى ميلى المستنيرة لم تحنق العلماء المحافظين فحسب ، ولكنها أيضا فشلت فى الحصول على تأييد التقدميين : (حزب تونس الفتاة) ، الذين واصلوا تمسكهم بحركة « الجامعة الاسلامية » المتطرفة ، واعترضوا على ادارة الحماية ، مما جعل السلطات الفرنسية تخشى أن الحماية ، بدون مناصرة الاهالى ، ستظهر كاحتلال عسكرى اجنبى ، ولذلك تخلت عن سياسة ميلى (مع أن ميلى دافع عن سياسته فى مؤتمر شمال افريقيا ، فى باريس سنة 1908) . وبدلا من ذلك بدأت السلطات الفرنسية تتودد الى الفرق التقليدية فى المجتمع التونسى .

لقد اختلفت هذه السياسة التقليدية ، التى وضعتها فرنسا فى تونس ، عن السياسة التى اتبعتها فى المغرب الاقصى والجزائر من حيث وسائلها ، وان التقيا معا فى الغاية : وهى دعم الحكم الفرنسى فى المغرب العربى .

حول مفهوم المدجن الاسباني - العربي

وأبعاده الاجتماعية والفنية والأدبية

فيارنو فوستافينو

ان المدجنين هم السكان المسلمون الذين افتكت أراضيهم واندمجوا بالتالي في وسط وحياة الممالك المسيحية . أما أصل هذه الشعوب الاسلامية فيرجع الى كونهم عبيدا بالولادة أو نتيجة الحروب او هم أفراد أحرار ينتمون الى مجموعات كانت خاضعة الى الحكام الجدد عندما تم الاستيلاء على أراضيهم .

ان الشعوب الاسلامية التي فضلت البقاء في الاراضي المسيحية ، نتيجة التقدم الذي احرزه المسيحيون بفتحهم البلاد ، ما زالوا ، قانونيا ، يعتبرون أحرارا وذلك في نطاق عديد الامتيازات القانونية والتي اختلفت حسب ظروف الفتح وتعمير كل الاحياء . على أن ذلك قد اثار شعور الغلبة والنصر لكل فترة زمنية . وعليه اتخذ الفونس العاشر (Alfonse X) اجراءات عامة حيال المدجنين ، مقرا مثلا فصل احيائهم وكذلك المحافظة على المساجد الموجودة والسماح لهم بالتردد اليها ، كما أنهم باستطاعتهم ان يحتفلوا علانية بأعيادهم الدينية في الاماكن التي يشكلون فيها أغلبية ، كما سمح لهاته الاقليات ان يترأسها شيخ .

الا انه بعد عهد الفتح ولضروريات سياسية ودينية ، اثيرت مسالة تنصير المسلمين أو طردهم بصفة نهائية، ومنذ هذا الوقت اختفى المدجنون ليحل مكانهم الموريسكيون (وهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية) الذين بقوا حتى أوائل القرن السابع عشر .

لقد اهتم المدجنون خاصة بميدان التجارة والصناعة وفنون الصناعة التقليدية . ففي المجال الفني مثلا ، طوروا ما يسمى بعد ذلك « الفن المدجن » وهو حصيلة عمل المسلمين الذين كانوا في خدمة الفاتحين ، وفي كثير من الحالات ، عمل الفاتحين أنفسهم عندما قلدوا المسلمين . وبالطبع ان العناصر الاسلامية والاوروبية لم تنصهر تماما في هذا الفن كما أن كلا منهما لم يفقد شخصيته ، غير انهما اندمجا ليحصل هذا المفهوم الجمالي الجديد والذي أطلق عليه « المدجن » .

ومن المتفق عليه اعتبار طليطله كمركز « المدجنين » بلا منازع وفي الجنوب والاندلس سيطرت العناصر الاسلامية ، في حين كان الشمال في قشتيلة القديمة وأرقون ، كان العنصر العربي اقل للتصدير ، وقد تلاحم بدرجات متفاوتة في العمق مع العناصر الاوروبية .

يوجد مفهوم تقليدي للمدجن وهو كل ما أنجزه أفراد هذه المجموعة الاجتماعية ، غير أن في اسلوب يخضع لخاصياته وليس لاصحابه ، وعليه وجب أن نؤكد ان كلمة « مدجن » في الميدان الفني ، لها معنى يختلف عن المعنى التقليدي ، كما يجب ان نميز هاته الخاصية الجمالية بعيدا عن كل تجمع .

واذا اردنا ان نجرد هاته الكلمة من أصلها ، فان لها معنى غير مشكوك فيه ، وهذا ما يسمح بادخال مفهوم « المدجن » : في كل الاعمال التي اجتمعت فيها بشكل منسق ، العناصر الغربية والعربية دون ان يفقد كل منهما شخصيته ، ولكن باندماجهما في مفهوم جمالي جديد . ويمكننا ادخال في الاطار الفني « للمدجن » المظاهر التي لم تعتبر اطلاقا بسبب الفروق العرقية التي تشير اليها هاته الكلمة . وهذا ما يفسر انه ، الى جانب مفهوم « المدجن » الاثري والفني ، لا بد من اضافة الجانب الادبي الى ذلك .

وبما اننا نقول عادة مثل هذه الجمل : « الشعر الباروكي » (Poésie baroque) أو « تجديد القديم » « أو النهضة » ، وان نفس الفكر يوحي في وقت واحد مظاهر تشكيلية وادبية لفترة معينة، فانه لا بد أن نعتقد أن الفن المدجن كان عليه ان ينطبق مع الادب المدجن .

ولهـذا الاسلوب الادبى لا بد من ادخـال ليس فقط « قصيدة يـوسف » (ذات المحتـوى العـربى والشكـل الغـربى) ولكن أيضا كتـاب لوبون امـور (Le livre de Bon Amour) لأرشيبرست دوهيتا (Archipreste de Hita) أو كتاب دوباطرونيو (Livre de Patronio) لأنفون دون جوان مانوال (Infant Don Juan Manuel) (حيث كان تركيبهما غريبا ممزوج بعناصر عربية) وكذلك قنتيقاس (Cantigas) لالفونس العاشر (Alfonse X) والكتب التى تهدف الى خدمة المثل الاخلاقيـة وكتب الاقصوصة والحكم والتى تضم عـددا كبيرا من العنـاصر العربيـة .

ان فن المدجن الذى ولد فى العصور الوسطى ، استجاب بطريقة شعبية وقومية لهذا النوع من الاحساس ، سرعان ما برز بشكل خفى واحيانـا بصورة جليـة ، متماشيا مع كل الاشكال والأساليب المستوردة من الخارج . ان فن المدجن هو نتاج اسبانى صرف ، وهو يشكل اسلوب خاصا بنا ، كما أنـه يمثل رمز هذه العلامات المتميزة للفكر الاسبـانى : ألا وهو القـدرة على التاليف والاندماج .

☆ ☆ ☆

قضية الحقوق النقابية

بتونس 1881 - 1932

مصطفى كريم

فى سنة 1905 وبعد اضراب شهر ماى 1904 وكذلك بعد تصويت اللجنة الاستشارية التى طلبت من الحكومة الاعتراف بالحق النقابى ، يبدو ان الادارة الفرنسية كانت مستعدة لقبول الاجراء التالى : اذا كان الحق المتفـق عليه يسمح او بصورة أخرى نتيجـة لتطبيق قانـون 15 سبتمبر 1888 على الجمعيات ، فان الحكومة التونسية تسمح بتشكيل نقابة فى الظروف التى تضمن سلطة المراقبة والتدخل ، غير أنها لا تقبل المنخرطين فى هذه النقـابة الا رؤساء ارباب المهن والعملة الفرنسيين . أما الاجانب المقيمون بتونس فيمكنون من الاستفادة بذلك . وعليه صدر مرسوم من الباى ينظم بموجبه طريقة التحكيم .

وقد انشئت لجان متالفة من رؤساء ارباب المهن والعملة الفرنسيين الذين انتخبهم زملائهم . وعلى الرغم من وجود مجموعة كبيرة من العملة الايطاليين الذين يفوقـون بكثير العملة الفرنسيين وكذلك هجرة عدد ضخم من الايطاليين الى تونس حيث غدت الجالية الايطالية التى أصبح بامكانها تعزيز التفوق الايطالى ، كان نظام الحماية مستعدا ان يعترف بالحقوق النقابية . غير ان نشأة حزب الشباب التونسى ويقظة المواطنين قد جعلت الادارة الاستعمارية ترجع فى موقفها رجوعا كاملا .

اوصت اللجنة الاستشارية بعدم الاعتراف للعملة بالحق النقـابى فى المستقبل وقد ساندت الصحف الاستعمارية هذا الاتجـاه . اما اوساط أرباب المهـن ، فأخذت تقـوم بضغط على بـاريس لمعارضة منح الحق النقابى ، غير انه بعد فرض الحكم العرفى فى البلاد اثر حوادث الجلاز واعلان الحرب ، نلاحظ اغفال قضية الحقوق النقابية الوطنية . الا ان استتباب السلم قد هيأ اثارة النقاش حول الاعتراف بالحق النقابى . وحتى سنة 1930 لم يتغير موقف الاقامة العامة التى أثارت نفس الاعتراضات للاعتراف بالحق النقـابى : فالمواطنون لم يكتسبوا بعد العقليـة المنسجمة مع منظمة تخدم مصالحهم المهنية وليس هى بمنظمة لاثارة الشغب .

أما الاجـانب وخاصة منهم الايطاليون فباستطاعتهم الدعوة الى تطبيـق التساوى فى الحق النقابى وانضمامهم الى المكاتب الادارية وضمن المعـاهدات السياسية . واخيرا فان لجنـة الشؤون الاسلامية التى اجتمعت سنـة 1925 لدراسة الاصلاحات المزمع ادخالها فى تـونس ، قد أظهرت عدم موافقتها على ذلك . ان هذا الموقف الرسمى للاقـامة العامة قد أثـاره من جديد المقيم العام منصـرون (Manceron) فى اكتوبـر 1932 ، وقد كتب الى وزارة الخـارجية الفرنسية بما مفاده : انه اذا حكمنا المثال الجزائرى ، فان احصاء الوضعية السكنية تشبه الى حد كبير وضعية تونس ، كما انه قد بولغ فى الاخطار التى ستنجر عن انشاء منظمة الحقوق المهنية والتى هى فعلا موجودة وهذا ما ينتج عنه مضرة كبيرة .

وقد ذكر المقيم العـام ان المشروع الاول قد رفض حيث نص على ان الثلثيـن من النقابيين على الاقل من الاوروبيين وان اعضاء المكتب كلهم من الفرنسيين . اما المشروع الثـاني الذى رفض من طرف لجنة الشؤون الاسلامية فقد نص على الحق النقـابى للاوروبيين فقط ، اما المواطنون فقـد اسنـا لهم مجالس اقليمية متنـاصفة . وقد أخلص المقيم العام الى القول ان نظام الحماية مستعـد الى يتبنى قانون 21 مارس 1884 بعد ادخال تحويرات تنسجم مع الوضع المحلى .

ونتيجة لهذه المذكرة صدر مرسوم البـاى بتاريخ 16 نوفمبر 1924 حيث طبق على الولايـة مرسوم 21 مارس 1884 وخاصة مرسوم 12 مارس 1924 . وأصبح وجود النقابة المهنية ، مـن الآن فصاعدا ، منظمة معترف بها قانونيا ، الا انه لم يعترف بالحق النقابى للموظفين ، كما هـو الحال فى فـرنسا .

☆☆☆

لوي ماشوال والإصلاح التربوي بتونس

خلال السنوات الأولى للحماية الفرنسية

ريشارد ساكي

يعتبر لـوى ماشوال (Louds Machuel) الذى اشتغل كمدير عام للتعليم التونسى مـن سـنة 1883 الى 1908 ، احد الشخصيات الهامة ضمن رجالات الحكومة التونسية فى بداية عهـد الحماية الفرنسية . يتمتع ماشوال بنشاط كبير وبعد نظر ، وقد تمكن خلال فترة زمنية قصيرة أن يغير التعليم بتونس تغييرا عميقا .

ودراستنا هاته تتناول بالبحث كيف كان ماشوال يرى أهمية تلقين عدد كبير من الاطفـال تعليما عصريا وكيف يمكن ادخال نظام تربوى عصرى الى تونس بصورة سريعة وشاملة على الرغـم من عدم الاهتمام أو الكراهية التى أبداها المسلمون .

يعد ماشوال محظوظا ، ذلك أن الوضعية العامة بتونس فى بداية عهد الحماية كانت مشجعة على نشر أفكار جديدة . هذا بالاضافة الى الوضعية السياسية فى فرنسا التى جعلت الوزير المقيم بـول كامبـون (Paul Cambon) يشعر بحرية التصرف فى الولايـة . وعليه شجع كامبون ادخال نظام تربوى حـديث للتونسيين ، كان الهـدف منه خلـق جيل يعمـل على تدعيم الحمايـة ومحاربة من كان ضد فرنسا فضلا عن تعزيز ومد الادارة المركزية برجال أكفـاء . وهكذا انشئت سنة 1883 ادارة التعليم العام وعين على رأسها لوى ماشوال .

ولد ماشوال بالجزائر سنة 1843 وتمكن بفضل بيئتـه ان يتلقى تعليما مزدوجا اوروبيـا اسلاميا وان يتكلم العربية بطلاقـة . وقد شعر المسلمون بعدم الارتيـاح لتعيينه مديرا للتعليم العام ، غير انهم لا يستطيعون مجابهة ذلك . وفى نفس الوقت الذى تعين فيـه ماشوال فى هـذا المنصب ، كان التعليم بالولاية قد أدخل عليه شيء من نظم التعليم الحديثة : مثلا وجود عدد مـن المعاهد الخاصة للاوروبيين والمعهد الصادقى للمسلمين وكذلك معهد الرابطة الاسرائيلية لليهود . وقد شجع ماشوال هذه المعـاهد . غير أن اهم الوسائل التى اتخذهـا لتطبيق التعليـم العصرى للتونسيين هو انشاء المعاهد الفرنسية ـ العربية . استعملت هاتـه المعاهد التى انشئت فى كـل المدن الهامة بالبلاد ، الفرنسية كلغة للتدريس فضلا عن تلقين التونسيين وأبناء المعمرين المبادىء الحديثة للمعرفة . وقد شجع ماشوال اختـلاط الاطفال ذوى الجنسيات والاديان المختلفة بالمعـاهد لاعتقاده ان ذلك يؤدى حتما الى تشجيع التقارب بين المجموعات المختلفة المقيمة بالبلاد .

لقد اختلفت ردود فعـل المسلميـن على انشاء المـدارس الفرنسية ـ العربية . ففى حيـن استقبلت بترحاب فى عدد من الاماكن ، نلاحظ أنها جوبهت بعدم الاهتمام أو الكراهية لدى العديد من الاماكن الاخرى . ان موقف الاشراف المحليين والمؤدبين قد أثر بصورة حاسمة على نوعية ردود فعل المواطنين تجاه انشاء المعاهد الفرنسية ـ العربية .

على أن الحكومة مارست ضغطا على المواطنين لتأمين التردد الى هاته المعاهد الحديثة . ولقد لقيت هاته المساعى درجات متفاوتة فى النجاح ، ولكن ، على العموم ، استمرت هاته المعاهد فى تأدية وظيفتها بصورة حسنة . أما التعليم الاسلامى التقليدى ، فقد ترك جانبا ، ذلك ان ماشوال كان يخشى التدخل لكل ما يمس الديـن . وحتى يضمن مساندة المدرسين الفعليـة لهاته المعاهد الجديدة أنشأ ماشوال المعهد العلوى بتونس سنة 1884 . وقد جلب هذا المعهد مجموعة مختلطة من التلاميذ الاوروبيين والمسلمين واليهود ، وقد عومل جميعهم على قدم المساواة ، كما اشتركـوا فى نفس الحياة التى يعيشونها .

كان ماشوال يأمل من اختـلاط التلاميذ ودراستهم معا ، ان يربط بعضهم ببعض ، وهذا مـا يسمح لهم بتجاوز الدين والحدود العرقيـة . لقد تمكن المدرسون المسلمـون بالمعهد العلـوى أن يقدموا مساهمة كبيرة فى انجاح المعاهد الفرنسية ـ العربية . وقد أرسل عدد قليل من المسلمين الى فرنسا قصد تدريبهم وجعلهم مدرسين أكفاء .

وعلى أية حـال ، نجح ماشوال تمامـا فى اعادة تنظيم التعليم بتـونس ، وانشئت معـاهد جديدة ، وأصلحت المعاهد القديمة ووسعت . أما المعارضة من جانب المسلمين فقد قضى عليهـا ضمن الحدود المعقولة .

ان التعليم الحـديث قد جلب الى المسلمين بأسرع الطرق التى يمكن أن تسمح بها الجـدوى فى الظروف الراهنة، وفى نفس الوقت وقع تامين الحاجيات التربوية بالنسبة للاوروبيين واليهود .

ومن خلال سياسته التربوية ، كان ماشوال يأمل تركيز التقـارب بين المعمرين والتونسيين على أسس ثابتة ، غير أن هذا الحلم لم يتحقق ومع ذلك فقد قام بما فى وسعه لتحقيق ذلك .

Table des Matières

1. Partie française et anglaise

● Sur la couverture signatures du Bey de Tunis et des hauts dignitaires, apposées au bas d'un traité, en turc et en français, conclu avec Louis XIV en date du 16 Décembre 1710.
Document original aux Archives Nationales de Tunisie (Dar-el-Bey), Dossier 58, carton 205.

● Les opinions émises par les auteurs n'engagent pas la responsabilité de la Revue.

* * *

Système de transcription que nous demandons à nos correspondants d'appliquer :

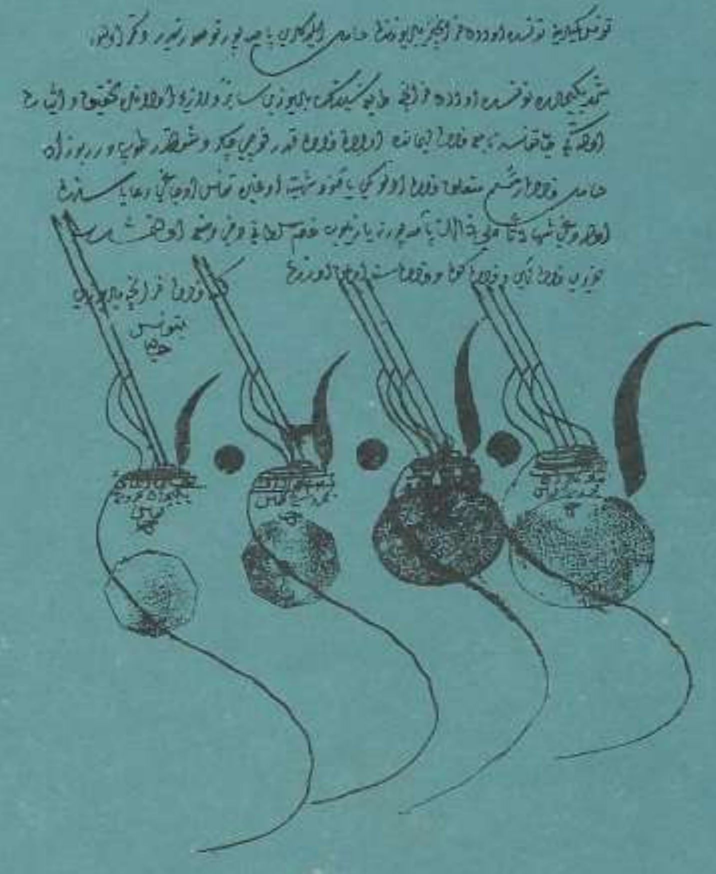
Arabe :

						Voyelles longues	
ب	b	ر	r	غ	gh		
ت	t	ز	z	ف	f		
ث	t̲h̲	س	s	ق	ḳ		
ج	d̲j̲	ش	s̲h̲	ک	k	ا ي	ā
ح	ḥ	ص	ṣ	ل	l	و	ū
خ	k̲h̲	ض	ḍ	م	m	ى	ī
د	d	ط	ṭ	ن	n	ه	a et at
ذ	d̲h̲	ظ	ẓ	ه	h	الـ	Al
		ع	ʿ	و	w		
				ى	y		

Turc : Nous disposons des caractères suivants :
ü, ö, č, ğ.

Imprimerie de l'UGTT - Tunis

REVUE D'HISTOIRE MAGHREBINE



N°3

JANVIER/JANUARY 1975

TUNIS

نرجو من الله القبول
ومنكم الدعاء